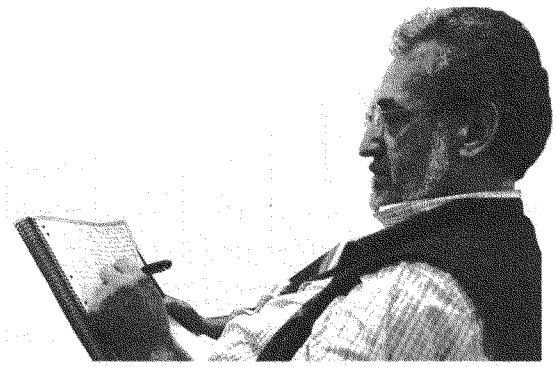

كي لا ننسى ستيفانو كياريني

ملف من إعداد وتقديم:
د. بيان نويهض الحوت*

ذاتَ صباح من شهر أيلول في سنة ٢٠٠٠، قرأتُ في الصحف المحلية خبرًا مفادُه أنّ وفدًا إيطاليّاً جاء إلى لبنان لإحياء ذكرى مجزرة صبرا وشاتيلا، وأنّ أعضاء الوفد، الذين يتقدّمهم ستيفانو كياريني، سوف يقابلون الرؤساءَ والمسؤولين، وسوف يزورون الأهالي في صبرا وشاتيلا.

كانت تلك هي الزيارةَ الأولى.

يا إلهي، كم كان هدفُ الزيارة معلنًا وواضحًا، بينما «مجزرة صبرا وشاتيلا،» هذه الكلمات الثلاث، كانت لا تتردّد في لبنان إلاّ قليلاً، وبصوتٍ منخفض، حتى بعد مرور ثمانية عشر عامًا على الأيام الدامية.

هكذا.. كَسَرَ ستيفانو كياريني، المناضلُ والكاتبُ الإيطالي اليساري، جليدَ التجاهل والقهر والكبت، متقدِّمًا بأقدامٍ ثابتة، ووجهٍ دائمَ الابتسام، لا ليقول لأهالي الضحايا، لهؤلاء الضحايا الأحياء، «نحن معكم،» فحسب، بل ليَطْلب منهم أيضًا الغفرانَ عن صمت السنوات السابقة، وليناشدَهم صداقتَهم وحبَّهم.

كثيرون هم الذين كتبوا عن «صبرا وشاتيلا.» كان من هؤلاء جان جينيه بشهادته، ومحمود درويش بقصائده، وروبرت فيسك بمقالاته، وفرانكلين لامْ بكتبه، أمّا ألبيرتو كورتيز فهو مَنْ غنّى بصوته الرائع ولغته الإسبانية في أقصى أمريكا الجنوبية، في الأرجنتين: «أين كانت الشمسُ عندما ثار الغضبُ في صبرا وشاتيلا؟»

كثيرون هم الذين أحبّوا فلسطينَ، وقدسَها، وأرضَها، أرضَ النبوءات والحضارة.

كثيرون هم الذين ناصروا قضيَّتَها، ووقفوا إلى جانب شعبها، وزاروا الأزقّةَ التي تُعرف منذ ستّين عامًا بـ «مخيّمات اللاجئين.» غير أنّ واحدًا من هؤلاء تميَّزتْ علاقتُه بفلسطين وقضيّتها وشعبها بنكهةٍ خاصة؛ ذاك هو «ستيفانو،» كما يناديه أهلُ صبرا وشاتيلا.

ما سرُّ هذه العلاقة؟ أو الحبّ؟ أو الصداقة؟

ستيفانو كياريني ما جاء أهالي الضحايا مناصرًا، أو داعمًا، أو سفيرًا للنوايا الحسنة، فحسب. فالأهالي يتحدثون عنه منذ زيارته الأولى **كواحدٍ منهم**، وكأنهم يعرفونه من زمن بعيد. ولو كَتَبَ روائيٌّ ما تاريخَ مخيم شاتيلا كما كتب عبد الرحمن منيف تاريخَ مدينة عمّان في رائعته **سيرة مدينة**، لربما كَتَبَ يقول:

«تردّدتْ شائعاتٌ أنّه كان على علاقات قديمة مع قادة الثورة. البعض قال مع أبو عمار، والبعض قال مع أبو جهاد، والبعض أَقسم اليمين بأنّه كان صديقًا حميمًا للحكيم جورج حبش؛ فهناك مراسلات! وقال بعضُ النسوة إنّه ما دخل بيتًا إلاّ ونادى الصغارَ بأسمائهم؛ وأَقسمتْ ليلى الصبية بأنّها أحبّته كما أحبّت أباها الذي قتلوه أمام عينيها في أيلول؛ أمّا أمُّ علي، فهي التي طالما ردّدتْ بصوتٍ عالٍ أمام الجارات، بل وأمام الأغراب: صدّقوني! إنّ ستيفانو وُلد في فلسطين، صدّقوني يا ناس!»

---

* - مؤرّخة فلسطينية.

في شهر أيلول من كلّ عام كان يأتي. وكان أصدقاؤه في صبرا وشاتيلا ينتظرونه، يتحدّثون معه عن كلّ شيء، يسألونه عن أحواله، ويشكون له همومَهم الصغيرةَ والكبيرة.

وهو ما كان ليأتي بمفرده. كان معه فنّانون وكتّاب ومخرجون ونوّاب ومناضلون، وبعضُهم بات يَعرف زواريبَ مخيم مار الياس أو مخيّم شاتيلا من غير دليل. غير أنّ ستيفانو لم يكن بينهم في أيلول الماضي، وقد جاؤوا كلُّهم رافعين شعارَه: «كي لا ننسى صبرا وشاتيلا.» أمّا لماذا تخلّف عن الحضور لأول مرة، فلسبب وحيد: وهو أنّه ما كان ممكنًا أن يغادر مدينتَه روما، إذ وافتْه المنيّةُ في الثالث من شباط (فبراير) ٢٠٠٧، بشكلٍ مفاجئ، وهو في بيته وبين أفراد أُسرته الصغيرة.

لم يصدِّق أصدقاؤه وأحبّاؤه في شاتيلا النبأ؛ أيرحل أحبُّ الناس إلى قلوبهم بهذه السرعة؟ لماذا يا الله، ولا اعتراضَ على إرادتك، لكنْ.. مَنْ يتذكّرهم غدًا؟

«مَنْ ينادي صغارَهم بأسمائهم؟»

«هل تبكي ليلى أباها مرتين؟»

«هل تصدِّق أمُّ علي أنّه ـ حقّاً ـ وُلِد في روما لا في فلسطين؟»

❖ ❖ ❖

مونيكا ماورير، المخرجةُ الفنّانة، وصاحبةُ القلم المرهف، واليدُ اليمنى لستيفانو، كانت أولَ من استجاب لفكرة مجلة الآداب بتحرير ملفّ بمناسبة الذكرى الأولى لرحيل المناضل العالمي. وعطاؤها لا ينحصر بمقالها المفعم بالحب، والمنطق، والأسلوبِ المتميز، كما بروح النضال والعزيمة، وبعنوانه: «إلى الأمام،» بل أيضًا باختيارها لوسيم دهمش، صديقِ ستيفانو والباحثِ الأكاديمي، ليكتبَ سيرةَ حياة المناضل الراحل. وسرعان ما استجاب الدكتور دهمش، فكتب بأصالته الفلسطينية، وثقافته الغربية، مقالَه بعنوان: «ستيفانو: البعدُ الأخلاقيّ في الصحافة والسياسة.»

أمّا مقالاتُ ستيفانو التي تَظْهر في هذا الملفّ، فقامت مونيكا باختيارها ممّا كان نَشَرَه في السنوات الأخيرة في صحيفة **مانيفستو**. ورحّب وسيم دهمش بمهمة الترجمة. كما رحّب بها بسّام صالح، الرئيسُ الأسبقُ للجالية الفلسطينية في روما، وهو مَنْ رافق ستيفانو إلى لبنان مرات، مناضلاً ومترجمًا.

بين محبّيه وأصدقائه في لبنان هناك اثنان لا يتقدّم عليهما أحدٌ للكتابة عنه. هناك طلال سلمان، الكاتبُ العربي الذي يطلّ على قرّائه منذ عقود إطلالةً شبهَ يومية في جريدته **السفير**، وهو المعروفُ بحسن اختياره لعناوينه، وعنوانُه في هذه المرة يقتصر على كلمةٍ واحدةٍ تختصر سيرةَ المناضل الكبير: «ستيفانو.» أمّا مقاله فلا يشْهد على سرّ العلاقة بين المناضل الراحل والضحايا الأحياء في شاتيلا فحسب، بل على سرّ العلاقة بين الرجلين أيضًا: فهما ـ ستيفانو وطلال ـ من معدنٍ واحد، ومن أصحابِ الهموم الواحدة، ومن عشّاقِ القصيدة الضائعة: فلسطين.

أمّا الصديق الثاني الذي لم يكن ليفارقَ ستيفانو في لبنان، والذي كان يُرى دومًا معه في زواريب المخيّمات، وفي المؤتمرات، وفي اجتماعات العمل على إحياء الذكرى كلَّ عام، فهو قاسم عينا، منسِّقُ لجنة «كي لا ننسى صبرا وشاتيلا.» شهادتُه في ستيفانو تَنْبع من دربٍ واحدٍ مشَيا عليه معًا. كما تنبع من الدرب نفسه شهاداتُ سهام بلقيس وسناء سرساوي وشهيرة أبو ردينة، وهنّ «من أهالي ضحايا مجزرة صبرا وشاتيلا»؛ وكذلك شهادةُ هشام غزلان من «بيت أطفال الصمود» الذي يرعاه قاسم عينا. فما خطَّتْه أقلامُ هؤلاء ليس مجردَ شهادات في الراحل الكبير، بل شهادات على الأمل الذي أحياه، من رقادٍ طويلٍ، في هؤلاء المعذَّبين الصامدين.

❖ ❖ ❖

وأخيرًا ماذا أقول أنا، أنا التي عشت السنوات الطوالَ أبحث عن أسرار مجزرة صبرا وشاتيلا، وعن تفاصيل تفاصيلها، فأستمع إلى كلّ مَنْ لديه ما يقول، وأقرأ لكلّ مَنْ كَتَبَ، وأشاهد الصورَ، وما أقساها من صور؟! ماذا أقول أكثرَ من الدرس الذي تعلّمتُه من ستيفانو، هذا الرجل الذي لا أعرف أحدًا يشبهه؟!

لقد عشتُ عشرين عامًا أبحث عن الماضي. مشيتُ يومًا من أيام سنة ١٩٨٣ على طريق شاتيلا الرئيسي مع سهام بلقيس، كما مشت هي وأمُّها مع أهالي صبرا في اليوم الثالث من الأيام الدامية، وهو اليومُ الذي لم تكن تَعْلم فيه بعدُ أنّ أباها قد قُتل في مكان آخر. رَوَتْ لي كيف ساقوهم، في ذلك السبت، نحو «المدينة الرياضية» للإذلال، للخطف، للتعذيب، للموت. مررنا على حاجزٍ للجيش، وكانوا ثلاثة جنود، بينهم واحدٌ من مرتكبي أحداث الخميس والجمعة والسبت ما بين ١٦ و١٨ أيلول، كما همستْ في أذني إحداهنّ ونحن في أول الشارع؛ فالعهد كان عهدَ «القوات اللبنانية.» كذلك كانت سهام تتكلّم بصوت منخفض، وآلةُ التسجيل في حقيبتي المفتوحة، وعشراتُ الصور تلحّ على الخاطر وهي تصف المشاهدَ المرعبةَ واحدًا تلو الآخر. وما كانت مشاهدُ سهام سوى صفحة من عشرات الصفحات التي بحثتُ عنها، ولم أعرف كيف أبتعدُ عنها، لأراها كما يجب أن أراها.

تعلّمتُ من ستيفانو كيف أبتعد قليلاً حتى أرى أفضل. تعلّمتُ منه ما علينا أن نفعلَه كي لا يموتَ الضحايا أكثرَ من مرة. تعلّمتُ منه أنّ الموت ليس هو النهاية.

هل أقول وداعًا؟

أمْ إلى اللقاء في أيلول القادم؟

بيروت

ستيفانو: البعد الأخلاقي في الصحافة والسياسة

وســـــيم دهمش*

حِين جاء النَبأُ الريّانُ مِنْ دَمكَ غَطّانا الخَجَلْ
حِينَ قالوا: كانَت الغُرْبَةُ والدّاءُ لَهُ زادًا وماءْ
نَحنُ غَطّانا الخَجَلْ
حِينَ قالوا: كانَ يُعْطِينا على جوعٍ، تَمَلْمَلْنا
وَغَطّانا الخَجَلْ(1)

هذه الأبيات هي مطلعُ المرثيّة التي نَعَتْ بها الشاعرةُ النابلسيةُ فدوى طوقان ابنَ مدينتها الفلسطيني وائل زعيْتر، الذي قتله الإسرائيليون في روما مساءَ جمعةٍ حزينةٍ عامَ ١٩٧٢. وبعد زهاء ربع قرن تردّدت الأبياتُ نفسُها في هذه المدينة، في كنيسة «سيدتنا في كوروموتو،» إبّانَ مراسم وداع الصحفي الإيطالي ستيفانو كياريني. لم يكن ذلك محضَ مصادفة: فمِنَ المعروف أنّ ستيفانو كياريني رَبَطَ حياتَه المهنيةَ والسياسيةَ بقضايا التحرر الإنساني، متّخذًا من القضية الفلسطينية عنوانًا لها. وكان ستيفانو، الطالبُ الجامعيُّ، في بيته في روما، عندما جَذَبَ انتباهَه دويُّ الطلقات العشر التي أطلقها الإسرائيليون على وائل زعيتر. ثم سمع عويلَ سيّارات الشرطة التي توالت إلى ساحة «أنّيباليانو» القريبة، وما زال ذانك الدويُّ والعويلُ يرافقانه حتى مماته.

❖ ❖ ❖

لم يكن قد مرَّ أكثرُ من شهر على مذبحة ميونخْ الشهيرة. وكان الصراعُ بين الفلسطينيين والإسرائيليين قد اتّخذ منحًى جديدًا بعد مجزرة أيلول الأسود عامَ ١٩٧٠، إذ انتهجت الحكومةُ الإسرائيليةُ ـ في محاولةٍ لتسديد الضربة القاضية إلى الحركة الفلسطينية ـ سياسةَ قتل المثقّفين الملتزمين ممّن تتوخّى فيهم قدراتٍ ثقافيةً أو قياديةً. وقد شكّل قتلُ غسّان كنفاني في الحازمية (لبنان) عامَ ١٩٧٢، قبل مذبحة ميونخْ، مؤشّرًا على تلك التوجُّهات الإسرائيلية.

كانت الحيويةُ السياسية التي ميَّزت الأوساطَ الطلاّبيةَ في المدارس الثانوية وفي الجامعات الإيطالية سمةً بارزةً من سمات المناخ الثقافي السائد في البلاد في تلك السنوات. وقد تَرَكَتْ حركاتُ الاحتجاج الجماهيرية، التي سبق أنْ عمّت معظمَ بلاد العالم سنةَ ١٩٦٨، بصماتٍ واضحةً على المجتمعات التي أفرزتْها كمحصّلةٍ لتغيّراتٍ ثقافيةٍ أَثَّرتْ في البنية المجتمعية. في إيطاليا تحديدًا، كانت فعّاليةُ الحركة الشعبية وتأثيرُها الثقافي على المجتمع أشدَّ منها في باقي البلدان الأوروبية نتيجةً لتلاحم فئات واسعة من العمّال ـ وخصوصًا من قطاعَي الحديد والصناعات الميكانيكية ـ مع حركة الاحتجاج الطلاّبية. وقد أدَّت الحركةُ الناجمةُ عن التطوّر الصناعي الكبير نتيجةً لإعادة التعمير بعد الحرب العالمية الثانية، ومن دون أن يرافقَ ذلك تحسنٌ موازٍ في

---

* ـ أستاذ الأدب العربي في جامعة كاليرَي، إيطاليا.

١ ـ فدوى طوقان، **ديوان فدوى طوقان** (بيروت: دار العودة، ٢٠٠٠)، ص ٦٠٧ـ ٦١١. القصيدة في مجموعة **على قمة الدنيا وحيدًا**، وتحمل العنوانَ نفسَه. انظر الترجمة الإيطالية في: AA.VV., **Palestina. Poesie** (Palermo, Ila Palma, 1982), pp.161-162.

صورة تذكارية للوفد الإيطالي لدى وصوله إلى مطار بيروت أيلول عام ٢٠٠١ للمشاركة في إحياء ذكرى مجزرة مخيميْ صبرا وشاتيلا (ويبدو ستيفانو جالسًا إلى اليسار)، وتبدو ستيفانيا ليميتي بين الواقفين في الوسط، إلى يسارها ساندرو كاسيلني، وإلى أقصى اليسار كارلو يونا.

الأحوال المعيشية للطبقة العاملة، إلى الإضرابات العمّالية الكبرى في خريف ١٩٦٨، وهي إضراباتٌ تلت احتلالَ المجموعات الطلّابية لأكثر المعاهد الجامعية وللعديد من المدارس الثانوية في مختلف أنحاء البلاد في ربيع العام نفسِه.

تزامَنَ صعودُ حركة الاحتجاج الطلّابية والعمّالية واتّساعُ رقعة فعلِ اليسار الأوروبي الجديد مع نموّ الحركة السياسية الفلسطينية المسلّحة. هكذا جاء التضامنُ مع النضال التحرُّري الوطني للفيتناميين والفلسطينيين في الأوساط الطلّابية والعمّالية بمثابة امتدادٍ طبيعيّ لمطالب الحركة بالحقّ في التعلُّم والعمل والانعتاق الاجتماعي. في الجامعات التي يحتلّها الطلّابُ كانت تقام كلَّ يوم تقريبًا الندواتُ والاجتماعاتُ التي تَشْحن الجوَّ بحيوية ثقافية وسياسية لا نظير لها أدَّت إلى نشوء منظماتٍ ما سُمِّيَ بـ «اليسار الجديد.» كما ظهرت العشراتُ، بل المئاتُ، من المجلّات والمنشورات التي ساهمتْ بدورها في إحداث انقلابٍ فكريّ في مجالات الأدب والفنون والمفاهيم الفلسفية غَيَّرَ الوجهَ السياسي والثقافي للبلاد. وفي هذا الجوّ الحميم الذي انحسر فيه ضغطُ المؤسّسة المحافظ، وتراجَعَ الحضورُ التقليدي لمنظّمات الشبيبة اليمينية والفاشية، ازداد تأثيرُ الأفكار الجديدة، ولم يعد يقتصر على الطبقات العاملة وأوساط المثقفين المتنوّرين، بل امتدّ ليشملَ الأوساطَ الكاثوليكيةَ التي بدأتْ أطرافُها المهتمّةُ بالمسائل الاجتماعية بإعادة النظر في مواقفها السياسية حيال العديد من القضايا الدولية.

في تلك السنوات كان الطالب ستيفانو كياريني يشارك المجموعات الطلابيةَ اليساريةَ نشاطاتِها، إلى جانب التزامه بجمعيةٍ ذاتِ طابعٍ نقابيّ تُدعى «الجمعية المسيحية للعمّال الإيطاليين،» واسمُها يدلّ عليها: فقد كانت، وما تزال، واحدةً من كبريات منظّمات العمّال الكاثوليكية. وفي أوساطها وأوساط مثيلاتها بدأتْ تتبلور، في مطلع الأعوام السبعين، أفكارُ مَنْ أُطلقتْ عليهم فيما بعد تسميةُ «الكاثو ـ شيوعيين.»

خلال سنوات المدرسة كان ستيفانو ذو التربية الكاثوليكية قد بدأ يعمل متطوّعًا في جمعية «الصليب الأحمر الإيطالي،» واضعًا نصبَ عينيه دراسةَ الطبِّ رغبةً منه في مساعدة المرضى والمحتاجين. وفي الحيّ الذي وُلد وترعرع فيه، كانت مدرسة «جوليو تشزَره» الثانوية التي دَرَسَ فيها ستيفانو أكثرَ ثانويّات روما مسرحًا لتسلُّط منظّمات الشبيبة الفاشية وعنفها. وهناك تعلَّم ستيفانو الدفاعَ عن أفكاره وعن رفاقه. ذلك كان هو المناخَ الثقافي السياسي الذي ترعرع فيه ستيفانو كياريني، وقاده فيما بعد إلى الانضمام إلى جماعة **المانيفستو**.

و**المانيفستو** ليست جريدةً يوميةً فحسب، بل هي أولاً مجموعةٌ سياسيةٌ لها تاريخُها وتوجُّهاتُها الفكرية. وقد صدر العدد الأول منها، كمجلة فكرية للحزب الشيوعي الإيطالي، في حزيران ١٩٦٩. ولكنْ سرعان ما اتَّخذتْ مواقفَ سياسيةً بعيدةً عن التوجُّهات الحزبية عقب اجتياح القوّات السوفيتية لتشيكوسلوفاكيا: فقد تفاقَمَ خلافُ محرِّري المجلّة مع قيادة الحزب حول المسألة التشيكية، فعمدت القيادة إلى فصل ثلاثة

من القائمين عليها من الحزب وإبعاد أربعة آخرين. وكان ثلاثةٌ من المبعَدين نوّابًا في البرلمان، فشكّلوا مجموعةً مستقلةً التحق بها نائبان آخران. ثم عاود محرِّرو المجلة إصدارَها بشكل مستقلّ في أيلول سنة ١٩٧٠. وتركّز النقاشُ في تلك الحقبة حول مسألة الديمقراطية في النظام الاشتراكي، وضرورة استقلال الأحزاب الشيوعية في أوروبا الغربية عن الاتحاد السوفيتي. ووقفت المجلةُ إلى جانب الحركة الطلاّبية والعمّالية المناضلة من أجل اكتساب حيّز أكبر من الحقوق الاقتصادية والسياسية. وقد حاولتْ جماعةُ **المانيفستو**، التي أصبح لها نفوذٌ سياسيٌّ في أوساط حركة الاحتجاج الجماهيرية، تشكيلَ حزبٍ سياسي إلى اليسار من الحزب الشيوعي الإيطالي، فعقدتْ لهذا الغرض مؤتمرًا بالاشتراك مع إحدى مجموعات اليسار الجديد في مطلع عام ١٩٧١. لكنَّ هذه المحاولة الأولى باءت بالفشل.

أدَّت حركةُ عام ١٩٦٨، فيما أدَّت إليه، إلى تعجيل المخاض المجتمعي الذي أفضى إلى صدام بين الفئات الطلاّبية والعمّالية الشابة والأحزاب اليسارية والنقابات، التي اتَّهمها الشبابُ اليساريُّ الجديد بعدم القيام بدورها في الدفاع عن مصالح الطبقة العاملة وبمهادنة الدولة البرجوازية. وبلغ هذا الصدامُ درجةً عاليةً من الحدّة عامَ ١٩٧٧، عندما مَنَعَ طلاّبُ جامعة روما زعيمَ أكبر النقابات العمّالية الإيطالية من إلقاء كلمة في الجامعة.

في هذا الجوِّ الجامعي في روما خلال السنوات الأولى التي قضاها ستيفانو في كليّة الطبّ في مطلع السبعينيات، كان هذا الشابُّ يشارك مجموعة **المانيفستو** نشاطَها السياسي: فكان عضوًا فاعلاً في اللجان الطلاّبية العمّالية المطالبة بتحسين الظروف الصحّية في المعامل، وكان دومًا في طليعة المظاهرات، وتعرَّض لهراوات رجال الشرطة غيرَ مَرَّةٍ حتى أُدخل المستشفى في إحداها. بل دفعه التزامُه السياسي ونشاطُه المتزايد في صفوف الحركة الطلاّبية العمّالية إلى التخلّي عن دراسة الطبّ والتحوُّل إلى دراسة العلوم السياسية، بعد أن وَضَعَ نصبَ عينيه الدفاعَ عن قضايا المظلومين عبر العمل الصحفي، وحدَّد في **المانيفستو** وسيلةً فعّالةً لبلوغ هدفه. وفي تلك السنوات بدأ بالتردُّد على إيرلندا والتعرُّفِ على الأوضاع الإيرلندية ودراستها.

كانت مجلة **المانيفستو** قد تحولتْ إلى جريدة يومية، صَدَرَ عددُها الأول في ٢٨ نيسان ١٩٧١، وأصبحتْ في وقت قصير حالةً فريدةً في المشهد الصحفي الأوروبي لكونها الجريدةَ اليوميةَ الوحيدةَ التي يَمْلكها محرِّروها الذين شكّلوا جمعيةً تعاونيةً لإصدارها. ويمكن القولُ، من دون مبالغة، إنَّها الجريدة الوحيدة المستقلّة تمامَ الاستقلال: فليس لها مالكٌ، سواء كان فردًا أو شركةً أو حزبًا أو هيئةً عامة، بل هي تعبِّر عن آراء محرِّريها لا غير. وقد تتباين هذه الآراءُ، لكنّها تحظى بالمجال المناسب على قدم المساواة.

في نهاية السبعينيات بدأ ستيفانو كياريني يراسل صحيفة **المانيفستو** من إنكلترا، حيث كان يدرس اللغةَ الإنجليزية، وكان الصراعُ في شمال إيرلندا على أشدِّه. ولم تقتصر تقاريرُه الصحفيةُ على نقل الأحداث، بل كانت تبحث في تاريخ النضال الإيرلندي ومسبِّباته. لم يتّخذ ستيفانو كياريني من الصحافة مهنةً يرتزق منها فحسب، بل ارتبط عملُه الصحفي أيضًا بالتزامه المعنوي والسياسي بهموم الضعفاء وبقضايا التحرُّر والتنديد بالظلم أينما وُجِد.

اتَّخذت الجريدةُ منذ نشوئها موقفًا مؤيِّدًا لحقوق الشعب الفلسطيني، ونشرت العديدَ من المقالات والتحقيقات حول الأوضاع الفلسطينية، كما استضافت عددًا كبيرًا من مقالات كتَبَها فلسطينيُّون. لكنَّ هذا لا يعني انعدامَ تباين في وجهات النظر حيال المسألة: فقد اتَّسمتْ مواقفُ بعض مؤسّسي الجريدة بالرويّة، قياسًا إلى مواقف الصحفيين الشباب من أمثال ستيفانو كياريني. وقد ارتسمتْ معالمُ هذا التباين إبّان الغزو الإسرائيلي للبنان عامَ ١٩٨٢، إذ بدأتْ تَظْهر بين آونة وأخرى مقالاتٌ تذكّر بمآسي اليهود إلى جانب مقالات المحرِّرين والمراسلين الشباب التي تروي معاناةَ الفلسطينيين. هكذا نشأ في الجريدة في الثمانينيات تفاوتٌ تَمثَّلَ في تيارَيْن: تيّارٍ خجولٍ يؤيِّد الحقوقَ الفلسطينية من دون تعريفها، أو يأخذ بتعريف منظمة التحرير الفلسطينية الذي أصبح يَقْصرها على حقّ الفلسطينيين في إقامة دولة لهم، ولا يتعرّض لإسرائيل إلاّ على استحياء...؛ وتيّارٍ يؤيِّد الحقوقَ الفلسطينية باعتبارها غيرَ قابلةٍ للتصرُّف، وقد كان هذا التيار هو دومًا الأرجح بين محرِّري الجريدة. تطوَّر التيّار الأول «المعتدل» في التسعينيات، وأضحى يؤيِّد مقولةَ «دولتين لشعبين،» أي القبول بوهم الحلّ الصهيوني لأزمة الشرق الأوسط. غنيٌّ عن القول إنَّ ستيفانو كياريني مَثَّل التيّارَ الأرجحَ والمعادي للصهيونية، وتكرّرتْ رحلاتُه إلى المشرق العربي، وخصوصًا إلى بلاد الشام والعراق، حيث كانت مراسلاتُه تعطي القارئَ صورةً موضوعيةً عمّا يجري في تلك البلاد، بعيدةً كلَّ البعد عن القوالب الجاهزة عن العرب والمسلمين التي يصوغها محيطُ العمل كي يستعملها الصحفيُّون المطيعون وقتَ الحاجة.

مثَّل ستيفانو كياريني الصحفيين المستقلّين خيرَ تمثيل عندما بقي في بغداد بعد بدء الهجوم الأمريكي عليها في كانون الثاني عام ١٩٩١، واستمرّ في القيام بعمله طيلة أسابيع الحرب. كان

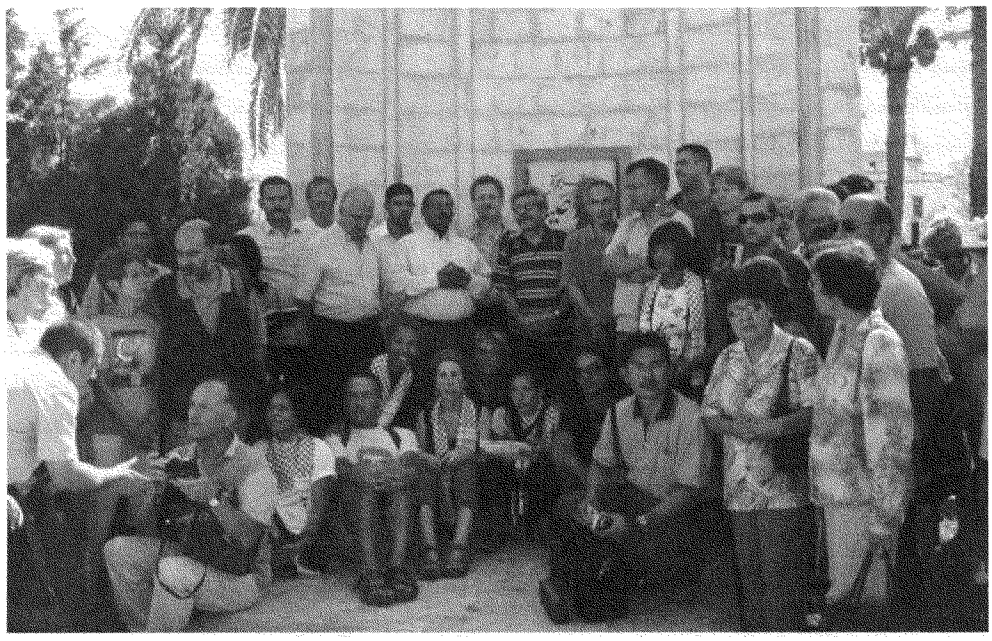

النائب اللبناني أسامة سعد (بالقميص الأبيض) متوسّطًا أعضاء الوفد الدولي الذي يزور لبنان في أيلول ٢٠٠٥ للمشاركة في إحياء ذكرى مجزرة مخيميْ صبرا وشاتيلا، ذلك أثناء زيارتهم نصبَ الشهداء في مدينة صيدا. ويبدو رئيسُ الوفد الإيطالي ستيفانو كياريني، والماليزي فؤاد حسن، والإسباني تورلز البيرتو، والفلسطيني بسّام صالح.

ستيفانو كياريني الصحفيَّ الغربيَّ الوحيدَ هناك، بالإضافة إلى بيتر آرنت مراسلِ «سي. ان. ان» الذي كان ينقل ما يدور في العراق إبّان الحرب. وكانت مراسلاتُه المصدرَ الرئيسيَّ للمعلومات في تلك الأيام. واستمرَّ كياريني خلال سنيّ الحصار التي تلت الحربَ الأميركيةَ الأولى في المشرق العربي بالتردُّد على العراق، ونَقْلِ أخباره، وسردِ ما يعانيه العراقيون نتيجةً للحصار المفروض عليهم. كانت مقالاتُه تنديدًا صريحًا بالمحرقة الأمريكية لأطفال العراق، وتعريةً للمناورات السياسية التي مَهّدتْ للحرب الأمريكية الثانية، وكشفًا للقوالب الدعائية الجاهزة التي تُستخدَم ضدّ هذا البلد أو ذاك تبعًا لحاجات السوق السياسية الأميركية الإسرائيلية.

❖ ❖ ❖

في العقدين الأخيرين مَسَّتِ الحاجةُ إلى قولبة المعلومات لاستخدامها في الحملات الإعلامية اللازمة لتحضير الناخبين في الغرب لتقبُّل الحملات العسكرية التالية. وازداد، من الناحية الأخرى، المجهودُ الثقافي ومجهودُ التوعية التي يضطلع بهما معارضو مشاريع الهيمنة الإمبريالية على العالم. ومن هذا المنطلق وُلدتْ لدى ستيفانو كياريني فكرةُ إنشاء دارٍ للنشر تكوّن ملتقًى لنقاشٍ ثقافيّ سياسيّ، وتَفْتح مجالاً للدراسات والأفكار الكفيلة باستكشاف أبعاد الأزمات الدولية والبحث في مسبِّباتها وتصوُّرِ منظورات النضال التحرُّري في شتّى الآفاق. وبعد أن عاد ستيفانو من العراق في نهاية الحرب بدأ، بمساعدة زوجته، العملَ على إنشاء دار «غامبيريتّي،» التي ظهرتْ إلى حيِّز الوجود في ربيع عام ١٩٩٢، وحازت في وقت قصير اهتمامًا واسعًا في محيط المختصّين في مجالات عديدة والقرّاء الواعين بشكلٍ أعمّ.

لا يتّسع المجالُ هنا إلا لإشارة عجولة إلى إصدارات دار «غامبيريتّي» الغنية، وهي تعكس اهتمامات مُنْشِئها وصاحبها المتعدِّدة. فقد نَشرت الدارُ عشراتٍ من الدراسات القيِّمة في مختلف المواضيع، وأُشيرُ أولاً إلى مجموعة من الكتب حول المسألة الإيرلندية (فقد كانت إيرلندا، إبّان الحرب، المحطّةَ الأولى لعمل ستيفانو الصحفي). وإنّ أسماءَ الكتّاب وعناوينَ كتبهم كافيةٌ لفهم التوجُّه الثقافي لدى ستيفانو ولسبر اختيارات دار غامبيريتّي، وأَخُصُّ بالذِّكر ثلاثةَ نصوصٍ لزعيم الحركة الجمهورية الإيرلندية جيري آدامز أوَّلُها عنوانُه: **ما قبل الفجر: سيرة زعيم حركة التحرير الإيرلندية**،[١] وفيه يروي الكاتبُ كما يقول الغلافُ «قصةَ حياته منذ طفولته في الأحياء ـ

١ ـ G. Adams, **Prima dell'alba. Autobiografia del leader del movimento di liberazione irlandese** (Roma: Gamberetti, 1999).

وهو ترجمةٌ لكتاب:

G. Adams, **Before the Dawn: An Autiobiography** (London: Heinemann, 1996).

الغيتوات الوطنية الكاثوليكية في بلفاست،» مرورًا بتجربة المعتقلات، ووصولاً إلى بدء المفاوضات مع الحكومة البريطانية. عنوانا الكتابين الآخريْن معبِّران عن مضمونيْهما خيرَ تعبير: **من أجل إيرلندة حرَّة: تاريخ الحركة الجمهورية الإيرلندية واستراتيجيتها**،[1] و**شوارع بلفاست: قصص من الحياة اليومية على خلفيَّة النضال التحرُّري الإيرلندي**.[2]

ولا بدّ من الإشارة إلى أنَّ أوَّل كتاب أصدرتْه دارُ غامبيريتّي كان للصحفية الإيطالية ريتا ـ پورينا[3] التي عايشت الحربَ الإسرائيلية ضدّ لبنان سنة ١٩٨٢ منذ بدايتها وحتى احتلال بيروت. وقد روى الكتابُ بموضوعية ما جرى إبَّان الحرب الإسرائيلية على لبنان. وخلافًا للتحقيقات الأخرى التي روت الأحداثَ السياسية أو اقتصرتْ على رواية مذبحتَي صبرا وشاتيلا، تناول الكتابُ الوجهَ الآخرَ للحرب، مستعرضًا ما كان يجري على صعيد الحياة اليومية في بيروت خلال الأيام الأخيرة للحصار الإسرائيلي. وحول المجزرة البيروتية نشرتْ غامبيريتّي أيضًا الترجمةَ الإيطاليةَ لنصِّ جان جينيه المعروف، **أربع ساعات في شاتيلا**،[4] في كتيِّبٍ أنيقٍ لاقى رواجًا كبيرًا.

لم تكتفِ دار غامبيريتّي بنشر كُتب تروي أحداث الثورات العالمية وتؤرِّخ لها، بل أصدرتْ بصددها العديدَ من الدراسات القيّمة، منها كتابُ إدوارد سعيد الشهير: **المسألة الفلسطينية**.[5] والكتاب، كما هو معروف، دراسةٌ هامةٌ تتناول، في معرض سردها لتاريخ التراكم السياسي المتعلّق بأرض فلسطين، الجذورَ الفكريةَ البعيدةَ التي أسَّستْ لنشوء المسألة الفلسطينية. وقد أضاف إدوارد سعيد إلى الطبعة الإيطالية فصلاً جديدًا يؤرِّخ فيه أحداثَ السنوات التي تلت صدورَ الطبعة الأصلية باللغة الإنجليزية (١٩٧٩)، وهذا الفصل ـ كما أعلم ـ لم يُنشَر بعدُ إلاّ بالإيطالية (١٩٩٥). قام ستيفانو بترجمة الكتاب، بالاشتراك مع مترجمة محترفة، وهي ترجمةٌ على درجة عالية من الدقَّة، وتدلُّ على معرفة بموضوع النصِّ وحيثيَّاته وبالمسألة وملابساتها أكثرَ من دلالتها على المعارف اللغوية. كَتَبَ مقدمةَ الطبعة الإيطالية غويدو ڤالابريغا، وهو مؤرِّخٌ إيطالي شهير، من عائلة يهودية، معادٍ للصهيونية، ومتخصِّصٌ بدراستها. والمقدِّمة، في حدِّ ذاتها، دراسةٌ قيِّمةٌ في الفكر الصهيوني.

من مؤلَّفات إدوارد سعيد التي نَشَرتْ طبعتَها الإيطاليةَ دارُ غامبيريتّي مؤلَّفُه الكبير، **الثقافة والإمبريالية**،[6] وهو الكتاب الذي لا يستطيع أيُّ باحث في تاريخ الأدب أو في الأدب المقارن اليوم تجاهُلَه. تتَّصف الترجمةُ الإيطاليةُ للنصّ، الذي اضطلع بها أيضًا ستيفانو كياريني بالمشاركة مع مترجمة أُخرى، بوضوح العرض ودقَّة التعبير. وقد أتاحت لقرّاء الإيطالية الذين لا يَعْرفون لغاتٍ أُخرى الاطِّلاعَ على كتابٍ يُعدُّ من أمَّهات الكتب في النقد الأدبي المعاصر.

لم يتوانَ ستيفانو في نشره لكتبٍ تتناول المسألةَ الفلسطينيةَ عن تقديم أبحاث ذاتِ مواضيع شائكة على علاقةٍ بالصراع على فلسطين، مثل كتاب پاتريك سيل: **أبو نضال: بندقيةٌ للإيجار**[7]

---

١ ـ G. Adams, **Per una libera Irlanda. Storia e strategia del movimento repubblicano irlandese** (Roma: Gamberetti), 1994.

٢ ـ G. Adams, **Strade di Belfast. Storie di vita quotidiana sullo sfondo della lotta di liberazione irlandese** (Roma: Gamberetti, 1996)

وهو ترجمةٌ لكتاب:

G. Adams, **The Street and Other Stories** (Dublin: Brandon, 1992).

٣ ـ R. Porena, **Il giorno che a Beirut morirono i panda** (Roma: Gamberetti, 1992).

٤ ـ J. Genet, **Quattro ore a Chatila** (Roma: Gamberetti, 1993).

وهو ترجمة لمقال:

J. Genet, "Quatre heures à Chatila," **Revue d'Études Palestiniennes,** no. 6, hiver 1983, p. 3-20.

٥ ـ E. Said, **La Questione Palestinese. La tragedia di essere vittima delle vittime** (Roma: Gamberetti, 1995)

وهو ترجمةٌ لكتاب:

E. W. Said, **The Question of Palestine** (New York: Vintage, 1979).

٦ ـ E. Said, **Cultura e imperialismo. Letteratura e consenso nel progetto coloniale dell'Occidente** (Roma: Gamberetti, 1998).

وهو ترجمةٌ لكتاب:

E.. W. Said, **Culture and Imperialism** (New York: Knopf, 1993).

٧ ـ P. Seale, **Abu Nidal, una pistola in vendita. I mille volti del terrorismo internazionale** (Roma: Gamberetti, 1994).

وهو ترجمةٌ لكتاب:

P. Seale, **Abu Nidal: A Gun for Hire** (New York: Random House, 1992).

الذي يبحث في ملابسات الإرهاب الدولي. وهذا النوع من النصوص، الذي قد لا يُرضي الجهاتِ المتحكّمةَ بمجال بحثه لأنّه يحاول الكشفَ عن الغموض الذي يكتنف هذه المسائلَ، يَبقى عادةً في المحيط الضيّق للمختصّين، ونادرًا ما يتعدّاه إلى جمهور القرّاء الواسع.

كما يعود الفضلُ إلى ستيفانو كياريني في نشر العديد من النصوص الصعبة الانتشار. ومنها على سبيل المثال لا الحصر كتابُ پاتريك سيل، **أسدُ دمشق**،[1] الذي يتناول بالدراسة الأوضاعَ السياسيةَ السوريةَ في العقود الأخيرة من خلال سرد سيرة الرئيس السوري حافظ الأسد.

كان لبعض الكتب التي أصدرها ستيفانو صدًى جيّدٌ، بينما لم يحظَ غيرُها بالانتشار المنشود. فعلى سبيل المثال، عند البحث عن كتابَيْ إدوارد سعيد، اللذَيْن نشرتْهما دارُ غامبيريتّي في الفهرست الوطني للمكتبات العامّة الإيطالية، نجد كتاب **المسألة الفلسطينية** في مكتبة واحدة فقط في إحدى ضواحي روما، بينما نجد كتابه **الثقافة والإمبريالية** في سبع وسبعين مكتبة عامّة منتشرة في كلّ أنحاء إيطاليا، لكنّها تشكّل على كلّ حال لبناتٍ باقيةً في السدِّ الثقافي الذي تجب إقامتُه لمواجهة الفيضان الإعلامي لأرباب المال والسلاح.

❖ ❖ ❖

لم يقتصرْ نشاطُ ستيفانو على الكتابة والنشر، بل كان دائمَ الحضور في مختلف المبادرات المتّخَذة لنصرة الشعوب المناضلة من أجل حريتها. فكان يقيم الندوات، ويلقي المحاضرات في المدارس والجامعات، ويشارك في عمل مختلف الجمعيات. وقد ازداد نشاطُه بعد خبوِّ جذوة الانتفاضة، وتقلُّصِ التضامن مع الشعوب العربية، وتبعثُر الجمعيات القائمة به.

في جوِّ اليتم الذي خلّفتْه العمليةُ الانتحاريةُ التي نفّذها الزعماءُ الفلسطينيون في أوسلو، تداعى مَنْ تبقّى من مناصري قضية التحرُّر اللبناني والفلسطيني وأقاموا لجنةً لإحياء ذكرى ضحايا مذبحتَي صبرا وشاتيلا، فكان ستيفانو كياريني داعيتَها الأولَ ومحرّكَها الذي ما انفكّ يذكّر بمآسي اللبنانيين والفلسطينيين من على صفحات الجريدة ومن على كلّ منبرٍ يصل إليه. بدأت اللجنةُ منذ سنة ٢٠٠٠ بتنظيم رحلة إلى لبنان في شهر أيلول من كلّ عام لإحياء ذكرى صبرا وشاتيلا. وهكذا قضى ستيفانو كياريني في السنوات الستِّ الأخيرة من حياته عيدَ ميلاده في المخيمات الفلسطينية في بيروت (فهو من مواليد ١٧ أيلول ١٩٥١).

ولا بدَّ في نهاية هذا المقال، المُعَدِّ في الذكرى الأولى لرحيله، من ذكر دوره الهامّ في إنشاء «منتدى فلسطين» (www.forumpalestina.org)، وهو الملتقى الذي تداعت لإقامته في خريف سنة ٢٠٠١ الجمعياتُ واللجانُ المتعاطفة مع الشعوب العربية المناضلة من أجل استرداد حريتها واستقلالها. كان ستيفانو محرّكًا نشطًا لهذا الملتقى، ومن أبرز وجوهه. و«المنتدى» اليومَ محاولةٌ لتوحيد صفوف الجماعات الصغيرة المبعثرة وتعزيزِ دورها، وهو يقوم بتنظيم الندوات وتسيير المظاهرات لتأييد الحقوق المشروعة للشعوب المقهورة والتنديد بسياسة التبعية للحرب الأميركية الإسرائيلية. هذا وقد أعلن المنتدى سنةَ ٢٠٠٨ «سنةَ فلسطين في إيطاليا،» وسيقوم بالعديد من المبادرات، كان أوّلها ندوةٌ عُقدتْ في ٣ شباط في الذكرى الأولى لرحيل صديقنا العزيز ستيفانو كياريني.

إيطاليا

---

١ - P. Seale, **Il leone di Damasco. Viaggio nel pianeta Siria attraverso la biografia del presidente Hafez Assad** (Rome: Gamberetti, 1995).

وهو ترجمةٌ لكتاب:

P. Seale, **Asad of Syria. The Struggle for the Middle East** (London: 1998).

ستيفانو كياريني

إلى الأمام

مونيكا ماورير*

ترجمة: بسّام صالح

كان هناك، مستندًا إلى أحد أعمدة الكنيسة القريبة من بيته، يتأمّل، ويتابع المؤمنين في صَلاتهم. يستمع إلى قدّاس الراهب الذي أصبح صديقًا له: يجمعهما عمقُ العمل الاجتماعي، وقيمُ ثيولوجيا التحرير، والقناعةُ بأنّ هذا العالم يمكن بل يجب أن يتغيّر نحو الأفضل، حيث لا تداس فيه كرامةُ الإنسان او تُغتصَب، وتختفي منه كلماتٌ مثل «حرب» و«استغلال» و«احتلال» و«قهر» في العالم الجديد.

ستيفانو كان هناك يتأمّل ويلاحظ الأشخاصَ المؤمنين «كمن يبحث عن عناصر جديدة ليُكْمل بها نظريةً فلسفية،» على ما يقوله الراهبُ دون رومانو، الراهبُ الصديق، «وكان يضع في حسابه استحالةَ الوصول إلى العالم الجديد إذا ما قِيسَ ذلك بحياة الفرد، وأنّ كثيرين لن يصلوا لأنّ العملية التاريخية بطيئة؛ ولكنّه يناضل بالقوّة نفسها: فلقد كان مؤمنًا بالتأكيد، لا بالمعنى الضيق للكاثوليكي المحافظ، ولكنّه كان مؤمنًا خاصةً، وقبل كل شيء، بالإنسان.»

هذا الاهتمام العميق تجاه الإنسان وألم الناس شكّل جزءًا من الحامض الخلويّ (DNA) في دمه منذ نعومة أظافره، وكان يضعه تحت تصرّف الآخرين. فخلال سنوات المدرسة المتوسطة تسجّلَ في الكشّافة لمساعدة المرضى، و«كعادته كان يأخذ أيَّ تكليف مأخذَ الجدّ ويكرّس نفسَه لمجموعته بحيويةٍ وشغف،» حسبَ ما تقوله شقيقتُه أنطونيتا.

في احتفالات أعياد الميلاد المجيد عام ١٩٦٠ ـ ولم يكن تجاوز الحاديةَ عشرةَ من عمره إذ إنّه من مواليد ١٩٥١ ـ وكما هي التقاليد، يقوم التلاميذُ بتصميم البيئة التي وُلد فيها السيدُ المسيح. ستيفانو نفّذ فكرةً جديدةً، إذ أراد أحياءَ الطبقات الاجتماعية الصاعدة في تلك الفترة: من عمّال، وعاطلين عن العمل، ومنبوذين. المشهد لم يكن في الأراضي المقدّسة، وإنّما في مصنع وورشاتِ بناءٍ، وثمة يافطات كُتب عليها «كلّه خلص» و«لا أماكن شاغرة،» بينما السيد المسيح بقي من دون سقف يحميه! قسمٌ من المؤمنين كان فرحًا، والقسمُ الثاني عبَّر عن احتجاجه على هذا «التصميم الشيوعي،» فتمّت إزالتُه. وبذلك، انتهى الوفاقُ بين الكشّافة والكنيسة وستيفانو.

وفي الوقت نفسه كان ستيفانو أحدَ المتطوّعين في الصليب الأحمر الإيطالي. ولكنّه اكتشف أنّه، خلْف الأعمال الخيرية التي لا تُنْكر، كان هناك تلاعبٌ وتنافسٌ، وهما من الأمور التي لم تكن تعجب ستيفانو، ولذلك أوقف مشاركتَه.

يقترب عامُ ٦٨، وحركتُه الجماهيريةُ الواسعة تَشْمل أيضًا مدرسةَ جوليو شيزره، حيث بدأتْ تظهر التوجُّهاتُ السياسيةُ المتناقضة، والتشاجراتُ والمسيرات، والمناشيرُ، والشرطةُ تقوم بإيقاف النشطاء. لكنّ ستيفانو، رغم خجله الواضح ظاهريّاً، لم يتراجعْ إلى الوراء أبدًا.

* ـ مخرجة أفلام وثائقية، عضو مؤسس في لجنة «كي لا ننسى صبرا وشاتيلا.»

مع مونيكا ماورير أمام بوّابة فاطمة، في جنوب لبنان.

لم تكن مطالعاتُه هي التي تدفعه باتّجاه الالتزام الاجتماعي، بل العكس: فقد كان قلقُه الاجتماعي وإحساسُه العميق بمعنى العدالة هما دافعَه إلى مزيد من التعمُّق التاريخي والسياسي من خلال المطالعة: بدايةً من خلال الدوريّات التي كانت تدور في بيت كياريني، كـ **لونيتا** صحيفةِ الحزب الشيوعي، و**بايزي سيرا** القريبة من الحزب، ومجلة **إكسپرسو**، ومن ثم من خلال كتّابٍ ومحلّلين أكثر تخصُّصًا.

كان ستيفانو يحبّ الكتابةَ للكشف عن أمراض المجتمع، والتعبير عن السياسات الجديدة الملحّة الناتجة منها. وفي أعوام السبعينيات، كتب معبِّرًا بأسلوبٍ حديثٍ نابعٍ من تكوينه الطبقي.

اختار كليّةَ الطبّ بلا تردُّد، وكرّس وقتَه بشغفٍ للدراسة، وطلب أن يبدأ بالممارسة العملية في أقرب وقت ممكن. ولكنْ بعد ثلاث سنوات حدثتْ قطيعةٌ مفاجئة، وابتعد عن الكليّة. تَذْكر شقيقتُه: «لم نفهمْ أبدًا السببَ، وأيُّ جدل في هذا الموضوع كان يسبِّب له ألمًا كبيرًا.»

بعد ذلك تسجَّلَ في كليّة العلوم السياسية، وهو ميدانٌ أكثرُ توافقًا مع موهبته الصحافية، بعد أن أصبحت الصحافةُ خلال ذلك عملَه الأساسي. وكان يحلم بالمشاركة في تحرير الصحيفة التي يتعاون معها. وقد تحقّق هذا الحلمُ عامَ ١٩٨٢. في تلك الفترة كان اهتمامُه بالمسألة الإيرلندية، وسفراتُه المتعددة إلى بلفست، قد سمحتْ له بفهم واقعٍ كان يبدو عن بُعدٍ وكأنّه حربٌ دينية. ومن هذه التجربة خرَج مقتنعًا بأنّ عليكَ، كي تفهم قضيةً ما، أن توجَدَ في المكان [الذي تجري فيه أحداثُها]. وبقي وفيّاً دائمًا لهذه القناعة طوالَ ٢٥ عامًا، فكان المبعوثَ «الأكثرَ شجاعةً ووضوحًا» لصحيفة **المانفيستو** (وعلى هذا لم يختلف أحد في **المانفيستو**).

كان مرهفًا وحسّاسًا. وكان في الوقت نفسه صلبًا وعنيدًا وغيرَ مستعدّ لأيّ مساومةٍ على مبدإ حقّ تقرير المصير للشعوب وحقِّها في مقاومة الاحتلال.

❖ ❖ ❖

اغتيال وائل زعيتر، وهو شاعرٌ وممثّلُ حركة «فتح» في إيطاليا، في أكتوبر ١٩٧٢، دَفَعَ ستيفانو إلى الاهتمام بفلسطين. وفي منتصف أعوام الثمانينات، سمّاه المؤتمرُ التأسيسي لـ «جمعية السلام،» وبالإجماع، «سفيرًا فوق العادة» للأراضي الفلسطينية، ولبناء علاقاتٍ سياسيةٍ مع منظمة التحرير الفلسطينية.

اتّخذ ستيفانو خيارًا نهائيّاً مع القضية الفلسطينية. كتب عامَ ٢٠٠٠: «لا احترام للفلسطينيين، لا أحياءً ولا أمواتًا. ألم تكن فلسطينُ أرضًا بلا شعب، وأُعطيتْ لشعب بلا أرض [غولدا مائير]؟ وبالتالي، فإنّ ثلاثة ملايين ونصف المليون من الناس غيرُ موجودين رسميّاً. وكذلك فإنّ الـ ٣٥٠،٠٠٠ لاجئ في لبنان، القادمين من الأراضي الخصبة في الجليل، غيرُ موجودين في هذا العالم، وغيرُ موجودين على طاولة المفاوضات، مع أنّ القرار ١٩٤ يثْبت حقَّهم في العودة إلى وطنهم. فهل يفكّر العالمُ حقيقةً أنّه يمكن الوصولُ إلى السلام بتجاهل وجودهم؟ وهل يفكّر العالمُ فعلاً أنّه يمكن الاستمرارُ في حرمانهم البيتَ والعملَ أو الدفنَ الكريمَ كما هو الحالُ في شاتيلا؟ نحن في

صحيفة **المانيفيستو** لا نفكّر مثلَ العالم. وقرّرنا أن نناضل كي تبقى ذكرى أولئك الموتى حيّةً لا تُنسى.»

بعد أيام قليلة من وصول القوات الدولية إلى بيروت لتوفير الحماية للسكّان المدنيين في المخيمات، عقب خروج الفدائيين الفلسطينيين، قُتِلَ ٥٠٠٠ فلسطيني ولبناني من سكان مخيّميْ صبرا وشاتيلا بين ١٦ و١٨ سبتمبر ١٩٨٢ على أيدي ميليشيات الكتائب الموالية لإسرائيل، وبإشراف ودعم لوجيستييْن من الجيش الإسرائيلي الذي كان قد احتلّ بيروتَ الغربية قبل ذلك بساعات قليلة. المجزرة، التي استمرّت ما يزيد على الأربعين ساعةً، كانت ستؤدّي ـ بحسب نيّة وزير الدفاع السابق آرييل شارون ـ إلى الحلّ النهائي لقضية ٤٠٠،٠٠٠ لاجئ فلسطيني في لبنان، من خلال إرهابهم ودفعهم باتجاه بلدانٍ عربيةٍ أخرى، بعيدًا عن فلسطين. لم يَدْفعْ شارون ثمنَ جرائم الحرب التي ارتكبها، بل أصبح رئيسًا لوزراء إسرائيل. ولجنة التحقيق القضائي، المعروفة بـ «لجنة كاهان،» حَمّلتْ شارون «مسؤوليةً شخصيةً غيرَ مباشرة،» ولكنْ من دون نتيجة تُذكر. إلاّ أنّ القانون البلجيكي، بعد تعديل إضافيّ تمّ إقرارُه عام ١٩٩٩، سَمَحَ بمحاكمة مواطنين أجانب ارتكبوا جرائمَ حرب في دول أخرى، وذلك على طريق الوصول إلى «القضاء الدولي.» وبعد العديد من الدعاوى المتعلّقة بمجزرة صبرا وشاتيلا، والمرفوعة من أهالي الضحايا الفلسطينيين، قرّر القضاءُ البلجيكي فتحَ ملفّ تحقيق بحقّ شارون. وعليه، تشكّلتْ لجنةٌ دوليةٌ لمحاكمة شارون، كان ستيفانو أحدَ أعضائها وشارك في شهر يونيو ٢٠٠٠ في ندوة عُقدتْ في بيروت لشبكة المنظّمات العربية غير الحكومية ـ وهي مؤسّسة تكوّنتْ عامَ ١٩٩٥ لتعزيز دور المنظّمات الأهلية غير الحكومية في المجتمع العربي وللمساهمة في تطوير مجتمعٍ مدني ديموقراطي، وتضمّ ٦٥ منظمة من ١٢ دولة عربية.

زياد عبدالصمد، المديرُ التنفيذي للشبكة العربية، قَدّم ستيفانو إلى قاسم عينا.[1] يقول قاسم عينا: «لقد شعرنا فورًا بأنّنا قريبون جدّاً وكأنّنا إخوة.» قاسم هذا شخصيةٌ تاريخيةٌ في مؤسّسات الثورة الفلسطينية، تعرّفتُ إليه عامَ ١٩٧٧، وكان أشبهَ بأبي «بيت أطفال الصمود،» وهو ما يشْبه دارَ الأيتام، أقامته منظمةُ التحرير الفلسطينية وأسّسه عامَ ١٩٧٦ الاتحادُ العامُّ للمرأة الفلسطينية بعد مجزرة تلّ الزعتر. الصداقة بين ستيفانو وقاسم، والتي بُنيتْ على القيم المشتركة، كانت أحدَ أسباب بقاء «بيت أطفال الصمود» طيلة هذه السنوات، إلى جانب صحيفة **السفير** لصاحبها طلال سلمان، مرجعيةً سياسيةً حيويةً ولوجيستية لعمل لجنتنا في لبنان. وفي الإطار نفسه تعرّف ستيفانو إلى طلال سلمان، صاحب ورئيس تحرير صحيفة **السفير** ذاتِ الاعتبار العالي، والتي قَدّمتْ دعمًا هامّاً إلى لجنة أهالي ضحايا صبرا وشاتيلا، وإلى حملة محاكمة شارون. ومن هنا وُلدتْ فكرةُ إنشاء «لجنة كي لا ننسى صبرا وشاتيلا.»

وكما كتب ستيفانو على صفحات **المانيفستو** في ٢٠٠٠/٩/٤: «ثمانية عشر عامًا مرّت، ولم يدفعْ أحدٌ الثمنَ. بل إنّ ضحايا المجزرة لم يَجْرِ دفنُهم بطريقة كريمة أيضًا. أكبرُ مقبرة جماعية معروفة، وتقع على مدخل مخيّم شاتيلا، وتبعد مسافةً قليلةً عن سفارة الكويت، أصبحتْ مجردَ ملعبٍ بائس مليء بالغبار، ومكانٍ تُلقى فيه نفاياتُ السوق القريبة والأوساخُ المختلفة. لا توجد أيُّ علامة أو إشارة تذكّر بوجودِ هذه المقبرة الجماعية وتطلب احترامَ الضحايا.»

لم يدّخرْ ستيفانو جهدًا، مستغلاً الكاريزما والهيبةَ والقدرةَ السياسيةَ التي كان يتمتّع بها، لكي ينظّم، وبأسرع وقت ممكن، وفدًا من برلمانيين (مثل لويزا مورغانتيني، عضوِ البرلمان الأوروبي ونائبةِ الرئيس) ومثقفين وممثّلين عن المنظّمات الأهلية غير الحكومية، كي يطالبوا السلطات اللبنانية، التي لها علاقاتُ تعاونٍ ممتازةٌ ببلدنا (إيطاليا)، للعمل على إعطاء ضحايا المجزرة حقَّهم في أن يوارَوْا الترابَ بصورةٍ كريمةٍ ولائقة.

تجدر الاشارةُ إلى أنّه خلال الذكرى الخمسين للنكبة، وبالتحديد يوم ٩ أبريل ١٩٩٨، قامت مجموعةٌ من الديموقراطيين اللبنانيين والفلسطينيين بتنظيف المنطقة. ولكنْ بعد أيام قامت فئاتٌ أخرى بإلقاء النفايات والقمامة في المكان نفسه، كما قامت بتخريبه.

ولكنْ يومَ ٢٠٠٠/٩/١٧، يومَ «الذاكرة في الساحة» كما كتب ستيفانو في مقالة له، «تظاهَرَ اللاجئون الفلسطينيون في الساحة لأول مرة منذ وقوع المجزرة، وعلى وجوه كبار السنّ والنساءِ الكثيراتِ علاماتُ الانفعال الكبير.» «كان فعلاً يومًا عظيمًا بالنسبة إلينا جميعًا،» على ما تقول إحدى السيدات الفلسطينيات من المنظّمات الأهلية، «والأسبابُ كثيرة: فقد استعدْنا حقَّنا في التظاهر في الشوارع، وحقَّنا أيضًا في المطالبة بالعمل والتملّك وفي حياة أفضل من الناحية الإنسانية ـ وكلُّها أمورٌ نحن محرومون منها في لبنان.»

النجاحُ الكبيرُ للمسيرة التي نظّمتْها المنظماتُ غيرُ الحكومية الفلسطينية واللبنانية، لمرافقة الوفد الإيطالي الذي شكّلتْه

---

١ ـ المنسّق العامّ لهيئة تنسيق الجمعيات الأهلية العاملة في التجمّعات الفلسطينية ـ لبنان.

ستيفانو في مؤتمر صحافي عام ٢٠٠٥ مع رئيس بلدية الغبيري السيد محمد سعيد الخنسا، ويبدو إلى يمينه المترجم بسّام صالح.

صحيفةُ **المانيفستو**، بالاشتراك مع المولود الجديد «لجنة كي لا ننسى صبرا وشاتيلا،» لم يهدفْ فقط إلى أن يقول للناس: «لستم وحدكم!». يقول قاسم عينا: «نحن في حاجة إلى تضامنكم. واهتمامُ وسائل الإعلام المحلّية والعالمية هو نتيجة فورية؛ إنّه يساعدنا في مفاوضاتنا وإصرارنا على المطالبة بالحقوق الإنسانية المدنية للفلسطينيين.»

عندما وصلْنا مدخلَ منطقة المقبرة الجماعية ظهر لنا فورًا أنّ البوّابة القديمة قد أُبْدلتْ بواحدة جديدة، وفوقَها قوسٌ كُتب عليها ما يذكّر بالشهداء. الجدار تمّ طلاؤه باللون الأبيض، وأزيلت كافةُ الأوساخ والقاذورات التي كانت تغطّي المقبرة، وقامت الشاحناتُ بإلقاء أطنان من التراب على أرض المقبرة. وهذا كلُّه بفضل رئيس بلدية الغبيري، محمد سعيد الخنسا [أبو سعيد] من حزب الله، الذي يتّبع تقاليدَ الحركة الوطنية التي ترى الفلسطينيين واللبنانيين متّحدين في مقاومة العدوان الصهيوني. وقد أقام ستيفانو علاقةَ أخوّةٍ واحترامٍ وصداقةٍ مع أبي سعيد.

❖ ❖ ❖

تدهور الوضعُ السياسي في الشرق الاوسط عامَ ٢٠٠١، بسقوط عملية اوسلو، التي تجاهلت اللاجئين الفلسطينين. ثم اندلعت الانتفاضةُ الثانية، التي أضاءت الأملَ من جديد. غير أنّ الأوضاع الحياتية المريرة التي أُجبروا عليها بقيتْ تصرخ في الفضاء. ولهذا قامت المنظماتُ الأهليةُ الفلسطينية غيرُ الحكومية، والاتحادُ العربي للمجتمع المدني، ومنتدى المنظمات غير الحكومية في لبنان، بالاشتراك مع الشبكة العربية للإنماء، بتوجيه نداء بأن يكون يومُ ١٧ سبتمبر اليومَ العالميَّ للذكرى والتضامن مع ضحايا العدوان الإسرائيلي، وبأن يكونَ مركزُه بيروتَ من أجل أن يَغْلب الحوارُ على رياح الحرب التي بدأتْ تعصف في الشرق الأوسط . وإلى أن يتمّ تنفيذُ قرارات الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين (انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة، وحقّ عودة اللاجئين)، يجب إعطاءُ الفلسطينيين في لبنان إمكانيةَ حياةٍ تستحقّ هذا الاسم. ولذا يجب إلغاءُ القوانين اللبنانية التي تميِّزهم في مجال العمل والتملّك.

كثيرون تجاوبوا مع هذا النداء: فالوفد الإيطالي كان مشكَّلاً من برلمانين يمثّلون مختلفَ الأحزاب (الخضر، الديموقراطيون اليساريون، حزب الشيوعيين الايطاليين، البرلمان الأوروبي عبر النائبة لويزا مورغانتيني عن حزب إعادة التأسيس الشيوعي، إضافةً إلى أبرز المنظّمات غير الحكومية الإيطالية). والأهمّ من ذلك أنّه، ولأول مرة، تشارك المنظماتُ الأهليةُ من فلسطين المحتلة، ومصر، وسوريا، والمغرب، والبلدان الأوروبية. وقامت هذه الوفودُ بجولة في الجنوب اللبناني شملتْ غالبيةَ المخيّمات الفلسطينية، وقامت بزيارة سجن الخيام (سابقًا) الذي حرّرتْه المقاومةُ اللبنانيةُ عامَ ٢٠٠٠.

قاسم عينا، من «بيت أطفال الصمود» ومنسّقُ المنظمات الأهلية الفلسطينية، قام بالتحضير لهذه الجولة بالتعاون مع الشبكة العربية للإنماء، وتضمّنتْ لقاءاتٍ سياسيةً (مع رئيس الجمهورية اللبنانية إميل لحود، والزعيم الدرزي وليد جنبلاط، وممثّلِ منظمة التحرير الفلسطينية السابق شفيق الحوت، وكافةِ

الفصائل الفلسطينية في المنطقة)، ولقاءاتٍ ثقافيةً مع المخرجيْن السينمائييْن (مي مصري وجان شمعون)، ولقاءاتٍ علمية مع د. بيان الحوت صاحبةِ أكبرِ وأكملِ بحثٍ عن المجزرة.

❖ ❖ ❖

جاءت أحداثُ الحادي عشر من سبتمبر محْدثةً تغيُّرًا عميقًا في المناخ السياسي تجاه العالم العربي عامةً، وتجاه القضية الفلسطينية بشكلٍ خاصّ. وارتفعتْ دعواتُ «صدام الحضارات» بين الغرب والشرق. وبتأثيرٍ ابتزازيّ، دُمِغَ أيُّ انتقاد لإسرائيل، ولسياستها الاحتلالية التوسعية ولتحالفها الحديدي مع الولايات المتحدة، بالعداء للسامية والإرهاب. وهذا ما قيّد حركةَ التضامن مع فلسطين بشكلٍ ملحوظ.

في هذه الظروف الصعبة، أحسّ ستيفانو بضرورةٍ وأهميةِ توسيع شبكة التضامن، وأيضًا لإعطاء قوة أكثر لـ «لجنة كي لا ننسى صبرا وشاتيلا.» ولذلك وَضَع قدراته الفائقةَ في تجميع قوًى مختلفة لتأسيس «الملتقى الفلسطيني» المكوَّنِ من: سيرجو كارارو، وجرمانو مونتي، وروبيرتو لوكيتتي، وستيفانو، وبسّام صالح الرئيسِ السابقِ للجالية الفلسطينية في روما. والهدف: تحطيمُ الصمت الذي أطبق على القضية الفلسطينية وعلى عمليات تجريم الفلسطينيين التي بدأتْ تُظْهرهم وكأنّهم جميعًا من الكاميكاز [الانتحاريين]، وتناسى البعضُ متعمِّدًا أيَّ حديث عن الاحتلال الإسرائيلي. وقد دعا «الملتقى الفلسطيني» إلى الإعداد لمسيرة شعبية في روما على المستوى الوطني دعمًا لفلسطين، وحَدَّد تاريخَها يومَ ٩ مارس ٢٠٠٢.

لم يدّخرْ ستيفانو جهدًا في الإعداد لهذه المسيرة، وعلى مدار الأشهر الأربعة التي سبقت المظاهرةَ، واضعًا قدرتَه وكفاءاتِه في جمع التناقضات على هدف مشترك. فتجوّل في إيطاليا شمالاً وجنوبًا لتعبئة المواطنين على برنامج المظاهرة السياسي، الذي مازال صالحًا حتى اليوم. وكان يطالب:

- بانسحاب القوات الإسرائيلية وإزالة المستوطنات من فلسطين.
- بحقّ تقرير المصير للشعب الفلسطيني، وإقامةِ الدولة الفلسطينية المستقلة، وعاصمتُها القدسُ الشرقية.
- بحقّ عودة اللاجئين الفلسطينيين.
- بالإفراج عن كافة السجناء الفلسطينيين.
- بإرسال مراقبين دوليين لحماية السكّان الفلسطينيين.

حظيت المظاهرةُ بمشاركة جماهيرية واسعة. ذلك أنّ ١٢٠،٠٠٠ مواطن هتفوا لفلسطين وحقوق الفلسطينيين، وأصبحت المظاهرة تُذْكر بأنّها أكبرُ مسيرةٍ لصالح فلسطين ليس فقط في إيطاليا وإنما في أوروبا أيضًا. وقد تحدَّث ستيفانو أمام المتظاهرين باسم الجميع: فهو ضمانةٌ ونقطةُ تقاطعٍ للوحدة في دعم القضية الفلسطينية ونضال شعبها، من دون أيّ تنازل أمام المواقف المطالبة بـ «الاتّزان» و«عدم الانحياز» ـ تلك المواقف التي لا تميِّز بين الاحتلال ومَنْ يقع تحت الاحتلال، ولا تفرِّق بين الظالم والمظلوم.

وعلى مشارف الذكرى العشرين للمجزرة، بدأ ستيفانو كياريني بالإعداد لتنظيم وفد إيطاليّ لإحياء الذكرى المريرة، والتي تأتي كغيرها أكثرَ مرارةً. فبعد مرور عشرين عامًا يبدو أنّ كلّ شيء بقي على حاله: فالعدالة لم تأخذْ مجراها، والعالمُ يتجاهل مَنْ تبقّى مِنْ ضحايا المجزرة، رغم عدم وجود أيّ شكّ في المسؤولية الدولية. وفي الطرف المقابل، وكما كان في السابق، هناك مَنْ يَرفض إدارةَ ظهرِه ونظرِه في الاتجاه المعاكس، بل وبقي في الجحيم ليدلي بشهادته، مثل المصوّر ريوتشي هيروكاوا، وهو أولُ مصوّر دَخل المخيمَ بعد المجزرة، أو ألِنْ سيغال، الممرِّضة الأميركية في مستشفى غزة؛ وقد عادا كلاهما لأوّل مرة بعد عشرين عامًا ليرفعا صوتيْهما معنا: «لن ننسى.» الإعداد الممتاز الذي قام به ستيفانو لاحياء الذكرى العشرين امتدّ ليَشْمل أيضًا العربَ الأميركيين، والإسبانَ، والفرنسيين، والماليزيين، والألمانَ، والدولَ الإسكندنافية، إضافةً إلى الوفد الإيطالي الكبير.

وبمناسبة الذكرى ٢٢ للمجزرة عامَ ٢٠٠٤، كتب ستيفانو كياريني في مقالةٍ له بتاريخ ٢٠٠٤/٩/١٨ يقول:

«يبدو لأول مرة أنّ الرؤساء [اللبنانيين] والمدينة على حوارٍ؛ فقد وحّدتْهم الذكرى... والكلماتُ التي استقبلَنا بها الرئيس لحّود في قصر الرئاسة في بعبدا لا تترك مجالاً للازدواجية: صبرا وشاتيلا تشكّلان نقطةً سوداءَ في تاريخ الإنسانية، وهذا ما يجب أن لا ننساه. كلماتُ [الرئيس] واضحةٌ وفي الصميم، وهي بالتاكيد ليست سهلةً إذا ما أَخذْنا في الاعتبار أنّ الرئيس إميل لحّود كان في السابق قائدًا للجيش، وهو مسيحي ماروني، وبالتالي أخٌ في الدين لجزءٍ كبيرٍ من أولئك الذين كلّفهم شارون 'بتنظيف' صبرا وشاتيلا.»

أحدُ المؤشِّرات الإيجابية الهامة لهذا التعاطف الجديد هو «الأيام السينمائيةُ» في بيروت، وقد افتُتحتْ بعرض فيلم «باب الشمس» للمخرج يسري نصر الله. الفيلم يروي مأساةَ ثلاثة أجيال من اللاجئين الفلسطينيين، وهو مأخوذٌ عن قصةٍ للكاتب اللبناني إلياس خوري تحمل العنوانَ نفسَه.

❖ ❖ ❖

على أنّ ستيفانو، رغم تفرّغه للعمل الصحفي والتضامني مع فلسطين، لم ينسَ إيطاليا وما كانت تمرّ به في ظلّ حكم بيرلوسكوني الذي ارتمى في أحضان «الحرب المسبَّقة والدائمة» التي أرادها جورج بوش الابنُ، جاعلاً من إيطاليا بلدًا

مع الرئيس اللبناني إميل لحّود عام ٢٠٠٠، وتبدو إلى يمين الرئيس لويزا مورغنتيني عضو البرلمان الأوروبي، وستيفانو كياريني، وإلى أقصى يساره موسوليني موريتسيو مسؤول العلاقات الدولية في الحزب الشيوعي الإيطالي وعضو لجنة «كي لا تنسى صبرا وشاتيلا.»

مرتبطًا، وانتهى بقران الموقف الإسرائيلي اليميني ومشاريعه لقضم ما تبقّى من فلسطين. فقرَّر أن يرشِّح نفسَه للانتخابات التشريعية لعضوية مجلس النوّاب كمستقلّ ضمن قوائم حزب الشيوعيين الإيطاليين، في انتخابات عام ٢٠٠٦. وكان يفسِّر خيارَه هذا «بدعم المواقف الجيِّدة لهذا الحزب من القضية الفلسطينية، ولمواجهة تحالف اليمين الذي يقوده بيرلوسكوني.» ولم يكن ستيفانو يرغب في الفوز، وإنّما في دعم برنامجٍ سياسي مؤيِّد للقضية ومعادٍ للحرب.

وفي العام نفسه أصرّ ستيفانو على الذهاب إلى موعده السنوي مع بيروت لإحياء ذكرى صبرا وشاتيلا الرابعة والعشرين. فلم نتردَّد ـ أمام أكثر من ألف شهيد، ومليون مهجَّر، وخسائرَ ماديةٍ جسيمةٍ، وأمام الطرق والجسور المدمَّرة بعد شهر كامل من القصف الإسرائيلي ـ في أن نكون إلى جانب ستيفانو مع وفدٍ إيطالي كبير في لبنان، لنقدِّم تضامنَنا مع الشعب اللبناني ومقاومته ضد عنجهية القوة العسكرية الإسرائيلية الهائلة.

عاد ستيفانو من بيروت يَحْمل في رأسه فكرةَ تحويل «لجنة كي لا ننسى» إلى جمعيةٍ لا تهدف إلى الربح، وإنّما لإعطائها الصبغةَ القانونية. فالتقى بأقرب معاونيه (ستيفانيا ليمتي، مونيكا ماورير، وماوريتسيو موسوليني)، وقرَّروا تحويلَ اللجنة إلى جمعية تهدف إلى إعطاء استمرارية محدَّدة للعمل الاجتماعي والسياسي المناصر للاجئين الفلسطينيين من أجل توفير احتياجاتهم الملحّة وحقّهم في العودة إلى وطنهم. ولكنّ لعبة القدر أرادت أن توصل وثائقَ تسجيل الجمعية لدى المحكمة قبل يومٍ واحدٍ من وفاته يوم ٣ فبراير ٢٠٠٧.

❖ ❖ ❖

بفضل ستيفانو وعمله السياسي الفائق، مازلنا نتجوّل ونتحدّث عن فلسطين برأسٍ مرفوعٍ وبصوتٍ ثابت. ولا نبالغ إنْ قلنا إنّ حياته مستمرةٌ بالمعارك التي يخوضها رفاقُه. والحقّ أنّ مواصلة معركته، وبالروح التي حملها، هي أفضلُ عملٍ لتخليده. «نسير إلى الأمام»: تلك كانت جملةً يردِّدها ستيفانو باستمرار. وفعلاً، لم تتوانَ جمعيةُ «كي لا ننسى» في سبتمبر ٢٠٠٧ عن إحياء الذكرى الخامسة والعشرين لمجزرة صبرا وشاتيلا، فكانت على رأس وفد من ٥٠ شخصًا. وكان ستيفانو معنا، وكان في المخيمات حيث كانت روحُه تخيِّم علينا.

إلى الأمام نحن سائرون.

إيطاليا

ستيفانو كياريني

ستيفانو

طلال سلمان*

صعبةٌ هي الكتابةُ بصيغة الغائب عن ستيفانو كياريني، الرجل الذي تماهى مع إيمانه بالقضية الحقّ حتى صار فيها ومنها، لا ينفصلُ عنها، برغم البعد... بل هو قد أضاف إليها ملامحَه، فاستقرّ فيها، وصرْنا نستذكره معها، ونستحضرُها، كلّما ذكرناه.

لَكَمْ هي جليلة القداسة هذه، المبارَكة، فلسطين، تتخطّى حواجزَ القومية والدين واللغة، لتَفْرضَ نفسَها هويةً لأيِّ مناضلٍ من أجل كرامة الإنسان وحقّه في وطنه!

على أنّنا نَحْفظ لستيفانو كياريني ميزةً إضافيةً: فلقد أَسْهم، مع رفاقه من المناضلين الأوروبيين الذين كانوا يجيئون إلينا صيفَ كلِّ عام، في إحياء ذكرى الشهداء الذين اغتيلوا في مذبحة جماعية؛ وهم المطرودون بالقوة من وطنهم، والمرميّون في مخيّمات اللجوء في ديارٍ غيرِ ديارهم، والمقتولون بلا ذَنْبٍ غير انتمائهم إلى الأرض المقدّسة فلسطين، التي رَفَضوا أن يتخلّوا عن هويتها برغم كلّ المغريات والعروض التي قُدِّمتْ إليهم تحت عنوان: إنسَ فلسطينَ تكُنْ لك الحياةُ في أيّ جنة أميركية أو أوروبية أو عربية... أمّا اذا تمسّكتَ بالأرض التي أُخذتْ منكَ بالسلاح وظللتَ تَحْلم بالعودة إليها، فلسوف تُقتل وتُدفن داخل حلمك، الذي قد يتّخذ صورةَ المقبرة الجماعية كما حصل مع أكثر من ألف وخمسمائة امرأة وطفل وعجوز فلسطيني في مخيّميْ صبرا وشاتيلا، ومعهم عشراتٌ من اللبنانيين وعشراتٌ من حملة جنسيات أخرى، ولكنّهم في البؤس شركاء، وإنْ كان بعضُهم محرومين من وطنهم والبعضُ الآخرُ محرومين في وطنهم.

وأَشْهد أنّنا كنّا قد بدأنا ننسى أو نتناسى شهداءَ صبرا وشاتيلا، لكثرةِ ما عشناه في لبنان، وعاشه الفلسطينيون داخل فلسطين وخارجها، من مآسٍ عبر الاجتياحات والاعتداءات الإسرائيلية المتكررة، والتي كان يطارد فيها جيشُ الدفاع الإسرائيلي الأحلامَ والعصافيرَ والفراشاتِ وابتساماتِ الأطفال وترانيمَ الأمّهات وهنّ يهدهدن بها أطفالَهُنّ لكي يناموا. وأَشْهد أنّنا كنّا نخاف من إثارة المواجع إذا ما نحن استذكرْنا صبرا وشاتيلا، إذ نَفَّذَ الحَوَلُ السياسيُّ لبعض القوى السياسية اللبنانية الغرضَ الإسرائيليَّ، تحت وهم أنّ تلك هي الطريقُ الأقصرُ إلى السلطة. فكان أن أفاد السفّاحُ آرييل شارون من هؤلاء الذين باتوا شركاءه كأدواتٍ في تنفيذ الجريمة، ليغسلَ يديْه منها، ويتّهمَ بها الأدوات، في حين أنّ التخطيطَ والتوقيتَ والتعتيمَ وتحضيرَ المسرح للجريمة كانت كلُّها بحت إسرائيلية.

لكنّ ستيفانو كياريني، المعزَّزَ بتجربةٍ نضاليةٍ ممتازةٍ في صفوف الحزب الشيوعي الإيطالي، والذي اتّخذ من الصحافة مهنةً لإيصال الحقيقة إلى الناس كجزءٍ من تعبئتهم من أجل نصرة الحقّ ومقاومة الطغيان والغلط والاحتلال، لم ينسَ ولا ارتضى لنا أن نرتكب خطيئةَ النسيان.

ولن أنسى أبدًا ذلك الوجعَ المشعَّ بابتسامةِ الودّ وهو يدخل عليّ في **السفير**، فأَعْرف أنّه حان الموعدُ الذي صار مرتبطًا به...

في المرة الأولى، وبعدما استمعتُ إليه بصوته الهادئ يبلغني القرارَ بقدوم مجموعات من المناضلين في منتصف أيلول لإحياء ذكرى شهداء صبرا وشاتيلا، قلتُ في نفسي: «لعلّها حركةُ

* - ناشر جريدة **السفير** (لبنان)، وأحدُ أعزّ أصدقاء ستيفانو كياريني.

مؤتمر صحافي صيف ٢٠٠٤ لرئيس الوفد الإيطالي المشارك لإحياء مجزرة مخيميْ صبرا وشاتيلا ١٩٨٢ ستيفانو كياريني، بحضور نقيب الصحافة محمد البعلبكي، وناشر صحيفة **السفير** طلال سلمان، وممثّلةٍ عن حزب الخضر الإيطالي.

تضامُنٍ لها أهدافُها المحليةُ في إيطاليا.» ثم انتبهتُ إلى أنّني إنّما أرتكب خطأً فظيعًا: فمَنْ له أهدافٌ سياسيةٌ هناك يجامل إسرائيل، أو يَسْكت عن جرائمها، ولا يتجشّم عناءَ السفر، وعلى حسابه، لكي يجيءَ فيتضامنَ مع الذين قُتلوا لأنّنا عجزنا (وعجزوا طبعًا) عن الوقوف في وجهِ مَنْ خَطَّط ثم نفّذ هذه المذبحةَ الجماعية.

بعدها تعوّدتُ أربعةَ لقاءات سنوية مع ستيفانو كياريني: اثنيْن يأتي فيهما وحده من أجل التحضير وترتيبِ المواعيد واللقاءات وبنود الاحتفالية، والثالث مع وفود المناضلين الآتين لإحياء الذكرى، والرابع بعد الذكرى السنوية لتقييم النتائج وتسجيل الملاحظات والهفوات لكي يكون الاحتفالُ في السنة التالية أعظمَ نجاحًا وأوسعَ تأثيرًا. ولقد شرّفني ستيفانو كياريني بتكليفي بتحضير المواعيد الرسمية. وهكذا كنتُ في أوائل شهر أيلول من كلّ عام أتّصل لأحجزَ مواعيدَ مع كلٍّ من رئيس الجمهورية، ورئيسِ المجلس النيابي، ورئيس الحكومة، إضافةً إلى الإعداد لمؤتمرٍ صحافي في نقابة الصحافيين.

ومن باب استذكار الإخلاص في تأدية الواجب يهمّني أن أنوّه إلى أنّ ستيفانو كياريني لم يَحْضرْ أيَّ عشاءٍ تكريميّ، في أيّ سنة، إلاّ متأخّرًا، وقبيْل انصراف المدعوّين، لأنّه يؤدّي واجبَه المهني لصحيفة **المانيفستو** أولاً، وبعد ذلك ينضمّ إلينا... ليشكرَنا ويودّعَنا.

وبطبيعة الحال، لم يكن ستيفانو كياريني وحيدًا في هذا الجهد، بل كان متقدّمًا بين أوائلَ لا يقلّون عنه إخلاصًا وإيمانًا بالإنسان وبحقوق الشعب الفلسطيني المضطهَدِ والمحروم من وطنه وما يساعده على حماية كرامته الإنسانية أيضًا. كانَ معه عددٌ من رفاقه المناضلين في صفوف الحزب الشيوعي الايطالي وبعض المنظمات التقدمية الأوروبية. وكيف ننسى الرفيقة مونيكا، الصلبةَ على رقّتها، والتي تتحدّث بعينيها أكثرَ ممّا تقول بلسانها، وتؤكّد لنا بابتسامتها المشعّة أنّ النضال لا يحتاج إلى العبوس والتجهّم... بل هو أحدُ مصادر الفرح بالحياة، وهو تقديرٌ لنعمة الحياة، وحمايةٌ لقيمتها، وبالتالي تكريمٌ لمن استحقّها.

❖ ❖ ❖

لن يأتيَ إلينا ستيفانو كياريني السنةَ. لكنّنا سنظلّ نَحْفظ موعدَ قدومه، وننتظره كما ينتظر الأطفالُ العيدَ. لقد علّمنا أن نحتفلَ بالشهداء وكأنّ ذكراهم هي العيدُ: هُمْ، مثلَه، لا يخْلفون موعدًا ولا يتأخّرون عمّن ينتظرهم.

لقد ساعَدَنا في حفظ شرف الشهادة من أجل القضية المحقّة والعادلة، من أجل حقّ الشعب الفلسطيني في حياةٍ فوق أرضه.

ولقد احتفل معنا مرارًا، وقد ملأه الزهوُ، بالانتصارات المجيدة التي كانت تحقّقها المقاومةُ في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي للبنان. وحين أَجبرت المقاومةُ الاحتلالَ على الجلاء، شاركَنا ستيفانو كياريني الاحتفالَ بهذا النصر المؤزّر... فجال مع رفاقه المناضلين على كلّ المواقع التي واجه المقاومون فيها بدمائهم آلةَ الحرب الإسرائيلية وانتصروا. كذلك جاء إلينا، مباشرةً بعد وقف النار في أواخر شهر آب ٢٠٠٦، ليؤكّد أنّه ورفاقَه لن يبدّلوا من موقفهم، ولن يتراجعوا، ولن يخافوا من مناخ الحرب وممّا نثرتْه إسرائيلُ من أسباب الموت على امتداد أرض الجنوب (مئات ألوف القنابل العنقودية).

... ولقد صَدَق ستيفانو كياريني، فجاء مع رفاقه، وشَهِدوا لبطولة المقاومة، وشَهِدوا على جرائم الحرب الإسرائيلية ضدّ الإنسان وأسبابِ العمران في لبنان.

ستيفانو كياريني في الوجدان الآن. إنّه الشاهد والشهيد، مستقرُّه العقلُ والقلبُ، الفكرُ والكتابُ والصحيفةُ المبشّرةُ بغدٍ أفضلَ للإنسان في كلّ أرض، بدءًا بالمقدّسةِ فلسطين... وانتهاءً بها.

بيروت

ستيفانو كياريني

٣ مقالات لستيفانو كياريني

فيما يلي ثلاثة مقالات لستيفانو كياريني. ترجم الأول منها د. وسيم دهمش، والثاني الأستاذ بسّام صالح. وقد نشرت في الأعوام ٢٠٠٧ و٢٠٠٦ و٢٠٠٠.

غنيمة حرب: نفطُ العراق تستولي عليه الشركاتُ الأميركيةُ المتعددةُ الجنسيات*

«بخفة وهدوء تسلَّل شبابُ البحرية في ليلِ خليج فارس، واستولوْا على حقلَيْن من حقول النفط بعد سلسلة هجومات شجاعة انتهت فجرَ اليوم. وقد استطاعوا التغلُّبَ على أسلحة الحرّاس العراقيين، وأحرزوا نصرًا من دون إراقة دماء في المعركة من أجل إمبراطورية العراق النفطية المترامية الأطراف.» هذا ما كتبه محرِّرُ **نيويورك تايمز**، وقد اعتراه الشبَقُ، في ٢٣ آذار ٢٠٠٣. وكما كان البنتاغون قد خطَّط قبل ذلك، فقد تبِعَ النصرَ احتلالُ منشآت النفط الرئيسية في العراق، واحتلالُ مبنى وزارة النفط في بغداد. وفي حين تقوم بحراسة المبنى الآن قوّاتٌ عسكريةٌ أميركيةٌ ضخمة، قام العسكرُ الأميركيون بفتح أبواب باقي الوزارات والمؤسّسات أمام الطامعين في السلب والسرقة، فهَدَموا جدرانَها، وتركوها مشرَّعةً تشجيعًا لنهب تاريخ العراق وسلب ذاكرته الجماعية.

خلال الأيام القادمة أو الساعات القادمة ـ كما كتبتْ صحيفة **The Independent** البريطانية ـ ستقوم إدارةُ بوش وتجمُّعُ شركات النفط الرئيسية بوضع يدها بشكلٍ نهائيّ على نفط العراق، ذلك البلد الذي قال عنه بول وولفوويتز إنَّه «يَسْبح في بحر من البترول.» والحال أنّ العراق يُعتبر ثالثَ أغنى بلاد العالم باحتياطيّ النفط بعد العربية السعودية وإيران، لكنّه قد يكون في الواقع الثانيَ أو الأولَ. فاحتياطيُّ النفط العراقي يصل إلى ١١٥ بليونَ برميل، أيْ ما يعادل ١٠٪ من الاحتياطي العالمي، وقد توجد في صحراء العراق الغربية كميّاتٌ كبيرةٌ من النفط الخام لم تُكتشفْ بعد. كما أنّ النفط العراقي عالي الجودة وسهلُ الاستخراج إلى حدٍّ دَفَعَ السلطات إلى فرش بعض الأراضي بالإسمنت لمنع انسياب النفط في حال قيام السكان بحفرياتٍ سطحيةٍ في تلك الأراضي. وهذا يعني أنّ تكاليف الاستخراج ضئيلة.

هذه جنّةُ عدن لأصحاب شركات النفط الذين سيقومون قريبًا باستغلالها بشروط مناسبة تمامًا للشركات الكبرى المتعددة الجنسيات، مثل الشركتيْن البريطانيتيْن «بريتيش بتروليوم» (B.P) و«شِلْ» (Shell)، والأميركيتيْن اكسَون (Exxon) وشِفرون (Chevron). وقد تترك الشركاتُ الأميركيةُ بعضَ فتاتِ حقول الناصرية للشركة الإيطالية «إيني» (ENI). وهذا الوضع مختلفٌ تمامَ الاختلاف عمّا تصوَّره انريكو ماتّاي (Enrico Mattei)، وكان من الممكن أن يَحْدث لو لم يُقتلْ هذا الأخيرُ في انفجار طائرته قبل الهبوط في مطار ميلانو مساءَ ٢٦ تشرين الأول ١٩٦٢. كان ماتّاي، رئيسُ مؤسسة «ايني،» يستعدّ للذهاب إلى بغداد، بعد بضعة أيام من ذلك التاريخ، لكي يوقِّع العقدَ النهائي مع حكومة عبد الكريم قاسم. وكانت الحكومة العراقية قد أعلنتْ في ٣٠ أيلول ١٩٦٢، أيْ قبل أيام قليلة من مقتل ماتّاي، عن إنشاء «المؤسسة الوطنية العراقية للنفط» التي كان مخطَّطًا لها أن تُنتج، بالتعاون مع مؤسسة «ايني،» ٢٠ مليونَ طُن من النفط سنويّاً. وكان الاتفاق بين المؤسستيْن بمثابة تحدٍّ صارخٍ لشركات النفط الكبرى.

❖ ❖ ❖

ستَدرس الحكومةُ العراقيةُ [الجديدةُ] التابعةُ للولايات المتحدة والموالية لإيران قانونًا جديدًا يحدِّد السياسةَ النفطيةَ، وسوف يوافق عليه مجلسُ النوّاب العراقي الذي انبثق عن مهزلة الانتخابات في العام الماضي. هذا القانون يختلف اختلافًا جذريّاً عن القوانين المتّبَعة في المنطقة، وفي بلاد العالم الثالث، في تنظيم العلاقة مع شركات النفط العالمية. فهذا القانونُ العراقي الجديد يَخْضع لنظامٍ أُطلق عليه اسمُ «اتفاق تقاسُم الإنتاج» (Production-Sharing Agreement-PSA) ويَسْمح لشركات النفط بالاستيلاء على ٧٥٪ من الأرباح بحجّة استرداد

* ـ ترجمة د. وسيم دهمش، صحيفة **مانيفستو**، ٢٠٠٧/١/٩ (وهو المقال الأخير لستيفانو قبل وفاته).

يافطة «من صبرا وشاتيلا إلى قانا» يرفعها أعضاء الوفد الإيطالي برئاسة ستيفانو كياريني خلال مشاركتهم سنة ٢٠٠٤ في مسيرة إحياء ذكرى مجزرة مخيميْ صبرا وشاتيلا. في الصورة ساندرو كاساليني وستيفانيا ليميتي ومونيكا ماورير وبسّام صالح.

المصاريف، على أن تنزل هذه النسبةُ تدريجيّاً لتصل إلى ٢٠٪ عند استرداد كامل المصاريف... هذا إذا حان الوقتُ يومًا ما لذلك. وهذه النسبة تشكّل، على كلّ حال، ضعفَ النسبة التي اقترحتْها حكومةُ صدّام حسين عشيةَ حرب الخليج الأولى على شركة «توتال» (Total) لاستغلال حقلٍ نفطيّ كبير، وكذلك ضعفَ النسبة المتعارَف عليها. بالإضافة إلى ذلك، ستكون مدّةُ صلاحية العقود ثلاثين سنة. وإذا تجرّأتْ حكومةٌ عراقيةٌ ما في المستقبل على المطالبة بسيادة البلاد على نفطها، فالمارينز مستعدّون على الدوام لتذكيرها بواجباتها.

من الصعب أن يَقْبل الشعبُ العراقيُّ باتّفاقٍ كهذا: فالاتفاقات المعقودة حسب نظام «اتفاق تقاسم الإنتاج» (PSA) تَتْرك ملْكيةَ الآبار للبلد المضيف، ولكنّها تَمْنح القسمَ **الأعظمَ** من الأرباح للشركات التي وَظّفتْ أموالاً في إنشاء البنى التحتية أو في إدارة الآبار وخطوط النفط والمصافي. والحال أنّ القانون العراقي الجديد هو أولُ قانونٍ من نوعه يسنُّه بلدٌ من كبار منتجي النفط. وفي حال حصول نزاع بين الشركة المتعاقدة والحكومة، فلن تكون للسيادة العراقية أيةُ قيمة، ويجب على الطرفَين المتنازعَين اللجوءُ إلى تحكيمٍ دولي.

تفيد الوثيقةُ التي حصلت عليها صحيفةُ **The Independent** أنّ شركات النفط ستستطيع، بموجب الاتّفاقات المعقودة حسب النظام الجديد، تصديرَ أرباحها بكامل الحرية ولن تُفرَضَ عليها في ذلك أيةُ ضريبة.

تسيطر حكومتا العربية السعودية وإيران على القطاع النفطي في بلادهما عبر هيئاتٍ حكوميةٍ لا مكانَ فيها للشركات الأجنبية. وكذلك حالُ أكثر الدول المنضوية تحت لواء منظمة الدول المصدِّرة للنفط «أوبيك»، وهكذا **كان** حال العراق منذ عام ١٩٧٢ وحتى اليوم. ويشكّل القانونُ العراقي الجديد سابقةً شديدةَ الخطورة لمنظمةِ الدول المصدِّرة للنفط التي يقف المحافظون الجدد لها بالمرصاد: فهم شنُّوا الحربَ واحتلُّوا العراقَ بهدف تفتيت الدول العربية وتدميرها، بدءًا من العراق نفسه، ومرورًا بسورية، ووصولاً إلى العربية السعودية، وتفتيت الدول الإسلامية كإيران؛ وذلك لترك المجال مفتوحًا لإسرائيل في المنطقة من ناحية، ولتسديد الضربة القاضية إلى منظّمة أوبيك من ناحية أخرى. ولقد كتب الخبراءُ الأميركيون الدستورَ المؤقّتَ للعراق واضعين هذا الهدفَ نصبَ أعينهم؛ فهو يفتح الطريقَ لتقسيم العراق إلى ثلاثة «أوطان عشائرية»: واحد كردي، وثانٍ سُنّي، وثالث شيعي، يقوم كلٌّ منها باستغلال حقول النفط الجديدة باستقلالٍ ومعزَلٍ عن الآخرَيْن، ولا يترك للحكومة المركزية إلا نسبةً ضئيلةً من عائدات الحقول القديمة. هكذا سيُفتَح المجالُ لقيام نزاع دائم بين الكيانات الثلاثة، وسيكون كلٌّ منها عرضةً لابتزاز الشركات المتعدِّدة الجنسيات، ولن يبقى للحكومة المركزية دورٌ أساسي. وبهذا تنتهي دولةُ الرفاه الاجتماعي، وينتهي دورُ الدولة في المجال الاقتصادي.

هذا القانون، الذي يجعل نهبَ ثروات العراق مشروعًا، لم تكتبه الحكومةُ العراقيةُ كما قد يتوارد إلى الذهن، بل كتبتْه شركةٌ أميركيةٌ اسمها «بيرنغ پوينت» (Bearing Point) وظّفتْها الإدارةُ الأميركية كي «تَنْصح» السلطاتِ العراقيةَ. وقد وضعت الشركةُ لهذا الغرض أحدَ مستشاريها في السفارة الأميركية في «المنطقة الخضراء» في بغداد بشكلٍ دائم. وفي شهر حزيران عام ٢٠٠٣ حصلتْ شركةُ «بيرنغ پوينت» على عقد بهدف «تسهيل إحياء الاقتصاد العراقي،» ويَشْمل مجموعةً من الشؤون الحسّاسة، ومنها: «كتابةُ الميزانية العراقية»؛ و«إعادةُ صياغة قانون

الاستثمار»؛ و«تنظيمُ جمع الضرائب»؛ و«وضعُ قواعد لِبرالية جديدة للتجارة والجمارك»؛ و«نقلُ ملكية المؤسسات العامّة العراقية إلى القطاع الخاصّ»؛ و«إلغاءُ المعونات الحكومية للموادّ الغذائية»؛ و«صكُّ نقدٍ جديدٍ وتحديدُ نِسَبِ الفائدة.»

عُرض القانونُ الجديدُ بعد إتمام تحريره على الإدارة الأميركية وعلى شركات النفط. وخلال شهر أيلول المنصرم عُرض على صندوق النقد الدولي. إلاّ أنّ العديد من النوّاب العراقيين لم يسمعوا به بعدُ.

إسرائيل وحلفُ شمال الأطلسي: مهامّ مشتركة*

إسرائيل التي قامت بقصف لبنان بمنتهى القسوة بالقذائف الفُوسفورية وبالقنابل العنقودية لمدة ٣٣ يومًا متواصلاً؛ إسرائيل التي تَنتهك المجالَ الجوّي اللبناني؛ إسرائيل التي تحتلُّ مزارعَ شبعا والأراضيَ الفلسطينية ومرتفعات الجولان السورية؛ إسرائيل التي صَنعتْ أكثرَ من ٢٠٠ قنبلة نووية وتضع البرامجَ للحروب الجرثومية وللحروب الكيماوية القادمة؛ إسرائيل هذه ستشارك على قدم المساواة في عمليات المسح والمراقبة البحرية «ضدّ الإرهاب» التي تقوم بها قوّاتُ حلف شمال الأطلسي في نطاق العملية المسمّاة «المساعي النشطة» (Active Endeavours).

أمّا حلف شمال الأطلسي فهو، بهذه الشراكة، «يبرِّئ» إسرائيلَ من انتهاكاتها لقرارات الأمم المتّحدة، ويبرِّئُها من خرق معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية، ومن انتهاكاتها المستمرة لاتّفاقيات جنيف. وسيبدو الحلفُ أمام ملايين العرب والمسلمين شريكًا في السياسة الوحشية التي تتّبعها إسرائيلُ في المنطقة. وبهذا، يشكّل الاتّفاقُ منعطفًا خطيرًا في العلاقات بين حلف شمال الأطلسي وإسرائيل. وقد جرى إبرامُ الاتّفاق يوم ١٦ تشرين الأول الجاري في مدينة بروكسل، حيث مقرُّ قيادة حلف شمال الأطلسي. والحال أنّ بشائر هذا الاتّفاق بدَتْ منذ زمن بعيد: فقبل سنتين هَدَّدَ حلفُ شمال الأطلسي بتغيير مقرّ قيادته ونقْلِها إلى فَرصوفيا إذا لم تقم الحكومةُ البلجيكيةُ بالتدخُّل لإيقاف محاكمة آرئيل شارون بتهمة ارتكابه جرائمَ حرب.

ينصّ اتّفاقُ التعاون مع إسرائيل على إشراك الدولة اليهودية في عمليات «مكافحة الإرهاب» في البحر الأبيض المتوسط. وقد جرى التنويهُ بالاتّفاق والاحتفاءُ به أولَ أمس خلال الزيارة التي قام بها ألِسّاندرو ميْنُوتو ريتسّو (Alessandro Minuto Rizzo)، الأمينُ العامُّ المساعدُ لحلف شمال الأطلسي، إلى تل أبيب، حيث أُقيمَتْ في بلدة هرتسيليا ندوةٌ تحت عنوان «العلاقات بين حلف شمال الأطلسي وإسرائيل والحوار في بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط» في جوٍّ من الحماس والسرور. ألقى السفير ريتسّو كلمةً قال فيها: «إذا تفحّصنا الحوارَ في حوض المتوسّط، وخاصةً التعاون بين حلف شمال الأطلسي وإسرائيل، لاحظْنا أنّ خطواتٍ عديدةً وسريعةً قد اتُّخِذَتْ في هذا المضمار، وأنّ العملية تتقدّم بسرعة. فلقد توصّلنا إلى وضع برنامج للتعاون، هو الأولُ من نوعه في مجال الحوار في حوض المتوسّط، ويشمل مواضيعَ عديدةً تهمُّ الجانبيْن، مثل مكافحة الإرهاب والقيام بمناورات عسكرية مشتركة. سيعطي الاتّفاق الذي توصّلنا إليه قوةَ دفع جديدةً للتعاون بيننا.» وأضاف قائلاً: «إنّ وجود ضابط اتّصال إسرائيلي في قيادة حلف شمال الأطلسي في مدينة ناپولي دليلٌ على حيوية التعاون القائم بيننا. كما تشكّل مشاركةُ إسرائيل في التدريبات العسكرية الهامّة لقوّات حلف شمال الأطلسي التي جرت في رومانيا وأوكرانيا دليلاً آخرَ على هذه الحيوية. لقد فتحْنا صفحةً جديدةً في تاريخ التعاون بين حلف شمال الأطلسي وإسرائيل.»

شارك في الندوة العديدُ من «صُنّاع الرأي العامّ» على أعلى المستويات، وكثيرون من الساسة الإسرائيليين، وعديدٌ من رجال الصناعات العسكرية، وجمهورٌ من ضبّاط حلف شمال الأطلسي ومن كبار موظّفيه. وقد أوضحت السيدة تزبي ليڤني، وزيرةُ الخارجية الإسرائيلية، «فلسفةَ» الشراكة الجديدة بين حلف شمال الأطلسي وإسرائيل، وهي فلسفةٌ تقوم على التبعية الكاملة للإدارة الأميركية، وتتناقض تناقضًا كليّاً مع سياسة الدول الأوروبية وسياسة إيطاليا على وجه التحديد تجاه الصراع العربي ـ الإسرائيلي والصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي. قالت الوزيرة الإسرائيلية إنّ إسرائيل وحلفَ شمال الأطلسي قد «أصبحا حليفَيْن طبيعييْن» إذ لم تعد «التيّاراتُ والتطلُّعاتُ القوميةُ جوهرَ النزاع.» وأضافت الوزيرة أنّ أسباب «التوتُّر في الشرق الأوسط ليست النزاعات المحلية حول أراضٍ أو حدودٍ كما كانت سابقًا، بل إنّ التوتُّر يعود إلى الإيديولوجيات المتطرّفة.» وقالت إنّ «الدولَ القائمةَ على هذه الإيديولوجيات» تعمد إلى شحن جوّ العلاقات الدولية بتوتُّرٍ متزايد. وترى الوزيرة ليڤني أنّ اتّفاق التعاون مع حلف شمال الأطلسي يستند إلى ضرورة إقامة دفاع مشترك بين «الدول التي تُشاركنا قيمَنا ومبادئنا.»

* ـ ترجمة د. وسيم دهمش، **مانيفستو**، ٢٠٠٦/١٠/٢٦.

ذكرى مجزرة صبرا وشاتيلا صيف ٢٠٠٠. مسيرة للوفد الإيطالي، ويبدو من اليمين أسامة سعد ونجاح واكيم وأبو سعيد الخنسا والحاج محمد البرجاوي وستيفانو كياريني ولويزا مورغانتيني وعلي حمدان.

ولكنْ عن أية قيم ومبادئ تتحدّث الوزيرةُ الإسرائيلية؟ أعن مبدإ احتلال أراضي الغير بالقوة؟ أمْ مبدإ اضطهاد شعبٍ آخر، وعدم السماح له بإقامة دولةٍ له على ٢٢٪ من أراضيه؟ لعلَّ الوزيرةَ تتحدث عن القيم والمبادئ التي تقوم عليها وتتَّبعها الحكومةُ العنصريةُ التي جعلتْ من نظام التمييز العنصري في الضفة الغربية المحتلة ومن إنتاجِ أسلحة الدمار الجماعي أركانَ سياستها!

بين ملعوني شاتيلا*

«خمسَ مرات دَمّروا بيوتَنا، وخمسَ مرات طردونا تحت تهديد السلاح. والآن يتحدّثون من جديد عن ترحيلنا إلى كندا أو العراق. عفوًا، فنحن إنْ رَحَلْنا من هنا فسيكون ذلك فقط من أجل العودة إلى بلدنا، إلى فلسطين. هل يفكّر البعضُ أنّنا قاتلْنا ثلاثين عامًا، وتخلَّيْنا عن كلّ شيء، وفقدْنا الآلافَ من أعزّ أبنائنا، لكي نصبح مهاجرين في أوروبا أو أميركا؟ ولماذا كلُّ المهجّرين لهم الحقُّ في العودة إلى بلادهم، ما عدا الفلسطينيين؟»

السيدة «علمة،» بتعبيرٍ منفتح ووجهٍ شبابيّ رغم مرور الزمن، تهزّ رأسَها متشكّكة بين الأسف واليقين بأنّ مَنْ يناضل من أجل العودة إلى بلده سيكون نضالُه طويلاً وصعبًا. وهي، بثباتها الهادئ وثقتِها بحقّها، لا تهزّها المصائبُ الكبيرةُ نفسُها التي تبدو وكأنّها تسير في الاتجاه المعاكس. فلسطين لن تَخْرج أبدًا من قلبها ومن عقلها، تمامًا كما لم تَخْرجْ عصورًا من قلبِ ومن عقلِ أجيالٍ وأجيالٍ من أبناء عمومتها ـ الأعداء اليهود. إنّ سطحيةَ أميركا الشمالية وعنجهيةَ الحكومات الإسرائيلية هما وحدهما مَنْ يُمْكنهما التفكيرُ عكسَ ذلك. فالحقّ أنّ حلمَ الأرض الخصبة، أرض «العسل والحليب،» يشكّل القوةَ الوحيدةَ الحقيقيةَ التي تَسْمح لعلَمة، ومعها ٣٥٠،٠٠٠ من اللاجئين الفلسطينيين المنسيين من الجميع، بالتمكّن من الحياة والعيش في لبنان بظروفٍ أدنى من الظروف الإنسانية، من دون التمكّن من العمل، ولا المداومةِ في المدارس، ولا التردّدِ على المستشفيات العامة. وإنّ هذا يثير اشمئزازَ أيٍّ بشريّ.

«حياتي كانت حركةً بلا توقّف. طُردتْ عائلتي من قريتنا في فلسطين. وبعد تنقّلاتٍ مختلفة، استقرّت في مخيّم تل الزعتر، بالقرب من بيروت الشرقية. ولكنّ الكتائب حاصرت المخيّمَ عامَ ١٩٧٦، وقامت بتدميره، وقَتلوا على الأقل ٢٥٠٠ شخص، وربما أكثر. ولكنّنا، بمساعدة الصليب الأحمر، تمكّنّا من الهرب من المخيّم المحاصر، وذهبْنا إلى الدامور جنوبَ العاصمة اللبنانية، على الشاطئ.» بعد فترة تتوقّف السيدة الفلسطينية عن الحديث لتقدِّم لنا القهوةَ وبعضَ الحلويات، وتتابع روايةَ مأساتها، وهي مأساة ٣،٥٠٠،٠٠٠ فلسطيني مشتّتين في مختلف بقاع العالم: «عامَ ١٩٨٢ وصل الإسرائيليون، وهربْنا إلى الحمراء وسط بيروت، ومن ثم وصلنا إلى شاتيلا. ومن حسن الحظّ أنّنا في يوم المجزرة كنّا قد ذهبنا إلى بيروت، وبذلك نَجَوْنا. ولكنّ البيت

* ـ ترجمة بسّام صالح، **مانيفستو**، ٢٠٠٠/٦/١٨.

دُمِّر. واستمرّت حياتُنا إلى الفترة ما بين عام ١٩٨٥ و١٩٨٨، حين حاصرتْ حركةُ أمل المخيّمات...»

بؤساء مستشفى غزة

تقول ذلك وهي ترينا الغرفةَ الوحيدةَ: أرضيةٌ وجدرانٌ وسقفٌ من الإسمنت، منضدةٌ وكنبةٌ مغطاةٌ بقطعة من القماش البالي، وبعض الفَرْشات. في هذه الغرفة تعيش مع أطفالها الثلاثة، في الطابق الثاني من مبنى شبه محترق، خيالي ومظلم. هذا الهيكل الإسمنتي كان في الماضي مستشفى غزة في مخيم صبرا، وكان يُعتبر زهرةً يانعةً للهلال الأحمر الفلسطيني. تضرَّر أكثرَ من مرة نتيجةً للقصف الإسرائيلي، ونُهِب وسُلِبَ عام ١٩٨٢... وعامَ ١٩٨٥ هوجم مستشفى غزة من قِبل مليشيات قتلتْ عددًا كبيرًا من الممرّضين والمرضى، ولم تكتفِ بذلك بل دمّرت المعدّات الطبيّةَ وأشعلت النيرانَ في المستشفى. الآن، هذا المجمّع، المكوَّنُ من أربع بناياتٍ متصلة، أصبح يشكّل واحدًا من عشرة مراكز تستضيف منذ ١١ عامًا العائلاتِ الفلسطينيةَ التي فَقدتْ بيوتَها. مساكنُهم، التي كانت على أطراف مخيّم شاتيلا، دمّرها بدايةً الجيشُ الإسرائيلي، ومن ثم ميليشياتُ حركة أمل، ولا يستطيعون إعادةَ تعميرها. سلطاتُ بيروت تَمْنع ذلك في محاولةٍ لطرد جميع اللاجئين الفلسطينيين؛ وقد أقرّت بأنّ الأراضي القريبة من شاتيلا، وغيرَ المشمولة بالمناطق التي سُلِّمت إلى الأونروا في أعقاب حرب عام ١٩٤٨، يجب أن تعود إلى أصحابها الشرعيين.

سكّانُ تلك المناطق أصبحوا مرغَمين على العيش في هذه المباني، محرومين من أبسط الخدمات الأساسية، بلا ماء ولا إنارة. كلُّ طابق من مستشفى غزة يستضيف ٢٨ عائلة (بإجمالي ٣٥٨ لا يزيد على ٢٠٠٠ شخص). تحت تصرّفها مدخلٌ مظلمٌ يحتوي على مغسلٍ مشتركٍ للملابس والأدوات المنزلية، ودائمًا تفيض المياهُ ذاتُ الرائحة الكريهة. والحمّامات مشتركةٌ، ستةٌ لكلّ طابق. منذ سنة، قامت إحدى المنظّمات غير الحكومية النروجية (Norwegian People's Aid) بوضع لمباتِ إضاءةٍ أزالت الظلامَ عن الدرج. إنّها أشياء صغيرة، ولكنّها غيّرت الكثيرَ لسكّان مستشفى غزة السابق.

وكأيّ جحيم أيضًا هنا توجد أيامٌ أكثر سوءًا. الردهة التي تتشكّل من الأجنحة الأربعة لمستشفى غزة السابق احتلّتْها البركساتُ المغطاةُ بالبلاستيك، وأصبح الانتقالُ من الخارج إلى الداخل هدفًا قد يغيِّر حياةَ مَنْ يسكنها. تنفّسْنا الصعداءَ عند خروجنا من هذا الجحيم، وأمام أعيننا يمتدّ حيٌّ مثلُ صبرا، مازالت آثارُ الحرب المدمّرة عليه واضحةَ المعالم، فهو يخلو من أيّ نوع من الخدمات تستحقّ مثلَ هذا الاسم. ازدحام لا مثيل له. السكان ٥٠٪ فلسطينيون، و٥٠٪ من اللبنانيين الفقراء، بشكل عامّ من الشيعة... الحيّ منسيّ بالكامل من الحكومة اللبنانية. المساكن لا يجوز تسميتُها بهذا الاسم. الطرقاتُ من دون أيّ خدمات للمياه غير الصالحة، والمجاري مفتوحة تحت السماء، والشوارعُ مغطّاة بالوحل، والروائحُ كريهة، والنفاياتُ رائحتُها منتشرةٌ في كلّ مكان ولا تطاق. ومع ذلك، فإنّ سكّان صبرا أكثرُ حظّاً من سكان ما تبقّى من شاتيلا، فهذا يعتبر مستوى أكثرَ انخفاضًا.

بعد أن قطعنا بضع مئات من الأمتار وتجاوزْنا حاجزَ المخابرات السورية التي تسيطر على المخيم (من دون تصريح من هذه المخابرات لا تستطيع دخولَ المخيم، والأدهى أنّك لا تستطيع الخروج)، وصلنا إلى شاتيلا. على يميننا، حيث كانت تظهر الأحياءُ التي أقيمت خارج المنطقة المحددة للمخيم، يمتدّ الآن، وعلى مدّ النظر، ما تبقّى من أنقاض تلك الأحياء المدمَّرة، التي أصبحتْ مغطّاةً بالقاذورات وحطام السيارات. منظرٌ غايةٌ في اليأس. مئاتٌ من العائلات تعيش في أوضاع مزرية بين ألواح من الخشب مسقوفة بالبلستيك، أو داخل كانتينات المباني المدمَّرة، أو داخل ما يمكن تسميتُه بكهوفٍ تمّ حفرُها تحت قطع كبيرة من الإسمنت الذي سقط من المباني تمامًا على أنقاض البيوت القريبة. في أحد البيوت التي اخترقتْها القذائفُ وبقيتْ بلا جدران، قطعةٌ من البلاستيك الشفّاف، تبدو وكأنّها مشهدٌ مسرحي، تَظْهر من خلفها عائلةٌ مجتمعةٌ على طاولة. وفي الطابق الأرضي لمبنى آخر نرى إحدى الأمّهات تداعب رضيعَها، بينما عائلاتٌ أخرى رَتّبتْ نفسَها في اسطبلات كانت تُستعمل للخيول حتى عام ١٩٨٥.

الحكومة اللبنانية تعتقد أنّ تَرْكَ الفلسطينين يعيشون في مثل هذه الظروف يسهّل عودتَهم إلى فلسطين، وأنّ ضمان حياتهم هو واجبُ المجموعة الدولية. ولكنّ العنصرية التي تكمن تحت هذه الملاحقة، ومحاولةَ شطبهم كقضية وكبشر، ودَفْعَهم إلى الرحيل ولا أحد يَعْلم إلى أين، عنصريةٌ واضحةٌ، علمًا أنّ اللاجئين الفلسطينين لم تُفْرَضْ عليهم مثلُ هذه الظروف المعيشية في أيّ دولةٍ عربيةٍ أخرى.

كي ندركَ ذلك علينا الدخولُ والتجوّلُ في أزقّة شاتيلا، التي لا يزيد عرضُها في بعض الحالات عن متر ونصف المتر، وهي محاطةٌ على الجانبين بالمجاري المفتوحة، وتشكّل ما يشبه القصبةَ، وتبدو وكأنّها بلا مخرج. حجمُ المخيّم الأصلي كان سيحتوي ٥،٠٠٠ شخص، بينما أُضيفَ على أطرافه لاحقًا ما يقارب ١٨،٠٠٠ فلسطيني. هؤلاء الأخيرون تمّ التصريحُ لهم بالذهاب للسكن، حَرْفيّاً، فوق الأوائل. وبذلك بدأ سباقٌ حقيقيٌّ في البناء ارتفاعًا لثلاثة طوابق أو أربعة، من دون وجود أيّ تصميم إعماري، الأمرُ الذي جعل الأزقةَ الضيّقةَ مظلمةً ولا ترى الشمسَ إلاّ نادرًا. وأصبحت البيوتُ في شاتيلا أشبهَ ما تكون بكهوفِ العصور الوسطى.

روما

شهادات قصيرة في ستيفانو

نلتزم موقفكَ

رحلتَ باكرًا. فارقْتنا في ظلّ ظروف قاسية. وكنتَ لي أخًا عزيزًا، وصديقًا وفيّاً، ومناضلاً ملتزمًا وصادقًا.

منذ اللحظة الأولى لاجتماعنا قبل ثماني سنوات من أجل الإعداد لإحياء ذكرى مجزرة صبرا وشاتيلا، شعرتُ بأنّني على معرفة بكَ منذ سنوات طويلة. ولكنّني للأسف الشديد أشعر الآن، كما الكثيرون من أصدقائك ومحبّيك، بالخسارة الكبيرة لرحيلك المبكّر. قاتل اللّهُ فراقَ الأحبّاءِ أمثالك!

فارقتْنا ابتسامتُك الهادئة، ورجاحةُ مواقفك الوطنية. ما أحوجَنا إلى قلمك، وفكرك، وموقفِك الواضح والصريح والثابت، وإصرارك، وعملك الدؤوب، ومتابعتِكَ الدائمةِ لأحوال فلسطين ولبنان والعراق، بالرغم من مختلف أشكال المخاطر التي واجهتْكَ.

رحلتَ عنّا باكرًا. فارقْتنا من دون وداع. مكالمتُكَ الأخيرةُ لي قبل الرحيل بيوم ما زالت ترنّ في أذني لمواصلة العمل والنضال الذي آمنتَ وكرّستَ حياتَكَ وعقلَكَ من أجله. سنتابع نحن وأحبّاؤك وأصدقاؤك في لبنان وإيطاليا وباقي الأقطار كلَّ النشاطات التي عملتَ من أجلها.

ستبقى يا أخي الحبيب حاضرًا معنا، وحيّاً في ذاكرة أطفال صبرا وشاتيلا وأطفالِ المخيّمات وبغداد... وكذلك الأجيال القادمة التي ستتابع النضالَ من أجل الحرية والاستقلال والسلام العادل.

«لجنةُ إحياء ذكرى مجزرة صبرا وشاتيلا في لبنان» تعاهدكَ على مواصلة مسيرة نضالك والالتزام بمواقفك ضدّ الإمبريالية والصهيونية.

قاسم عينا
(منسّق لجنة «كي لا ننسى صبرا وشاتيلا،» والمدير العامّ للمؤسسة الوطنية للرعاية الاجتماعية والتأهيل المهني)

نفتقدكَ في كلّ وقت

عندما نتذكّر مجزرةَ صبرا وشاتيلا، نتذكّر أولاً المناضلَ الكبيرَ والصديقَ العزيزَ ستيفانو كياريني، الذي كان مِنْ أهمّ الداعمين لقضيتنا الفلسطينية، ومؤسِّسَ لجنة «كي لا ننسى صبرا وشاتيلا.» وكيف ننسى مَنْ شاطَرَنا أحزانَنا في كل ذكرى من ذكريات المجزرة الأليمة التي خطفتْ منّا أغلى أحبّائنا؟!

كان ستيفانو مدافعًا عن قضيّتنا. ولم يكن وحده في ذلك فقط، بل استطاع أن يجمعَ أيضًا عددًا كبيرًا من أصدقائه ومعارفه في إيطاليا وأوروبا، ويُقْنعهم بعدالة قضيتنا، فيجعلهم من أهمّ المتحمّسين لهذه القضية، وأصبحوا من أوائل المشاركين في كلّ ذكرى للمجزرة في شهر أيلول من كلّ عام، كاشفين للعالم وحشيةَ الكيان الصهيوني وأعوانِه الذين ارتكبوا ومازالوا يرتكبون الجرائمَ بحقّ الأبرياء وضدّ الإنسانية في أماكن عديدة من عالمنا العربي والإسلامي. صديقنا ستيفانو وقف وقفةً شجاعةً، لا يخشى الصهاينةَ وانتقامَهم مِنْ كلّ مَنْ يفضح جرائمَهم ويَكشف نواياهم الخبيثةَ وأهدافَهم العدوانيةَ ضدّ الشعوبِ العربيةِ عامةً والشعبِ الفلسطيني بشكلٍ خاصّ.

كم افتقدناكَ يا صديقَنا العزيز ستيفانو في الذكرى الأخيرة لمجزرة صبرا وشاتيلا! وكم نفتقدكَ اليوم وفي كلّ وقت! لن ننساكَ أبدًا: فأنت باقٍ في وجدانِ كلِّ مَنْ عرفك وعرف إخلاصَك ووفاءَك للعرب والفلسطينيين، ووفاءَك بشكلٍ خاصّ لأهالي ضحايا مجزرة صبرا وشاتيلا.

تحيةً إليك أيُّها المناضل الكبير، ملؤُها العنفوانُ والصمودُ. تحيةً إليك يا ابنَ الإنسانية، وابنَ الأمة العربية وفلسطين.

سهام بلقيس
(من أهالي ضحايا مجزرة صبرا وشاتيلا)

عزاؤنا في أصدقائك

ستيفانو كياريني يعني لي، ولجميع أهالي ضحايا مجزرة صبرا وشاتيلا، الكثيرَ. هو شخصٌ فوق العادة. أحسسْنا بالقوّة لوجوده إلى جانبنا مع أصدقائه في «لجنة كي لا ننسى مجزرةَ صبرا وشاتيلا.» وشعرْنا أنّ دماءَ أبنائنا لن تذهبَ هدرًا ما دام هناك أمثالُه مطالبين يَعْملون بكلّ جدٍّ ونشاط.

انتظرناه وننتظره كلَّ عام، وعند قدوم شهر أيلول، وننتظر معه أصدقاءه الوفودَ لإحياء ذكرى شهداء مجزرة صبرا وشاتيلا. هو مَنْ حَمَل همومَنا وجراحَنا، وأَبلغَ العالمَ بمأساتنا، وكان يَعمل من دون كللٍ أو ملل، يُصْغي لتجاربنا بكلّ اهتمام، ومرارًا ترفرف الدموعُ في مقلتيْه تأثُّرًا، ولكنّه كان يبتسم لنا بوجهه الطيّب الحنون، مواسيًا ومعزِّيًا. وكان يشارك في عقد المؤتمرات الصحفية، ويتكلّم خلالها بكلّ شجاعةٍ وحماسٍ وإيمان بحقوق الشهداء الذين ذهبوا فريسةً للظلم والغدر. نحسّ به كأنّه أقربُ المقرَّبين لنا، فيبعث في نفوسنا الارتياحَ، ويُشْعرنا أيضًا بالعزم والإصرار والقوة لمواصلة الطريق وإظهارِ حقّ أبنائنا المغدورين. ونفتخر به افتخارَنا بالابن البارّ الصادق.

عندما وصلني خبرُ وفاته أحسستُ بالفقدان من جديد، وتأثّرتُ كثيرًا، وفكّرتُ بزوجته وولديْه، وكم تمنّيتُ أن أكون إلى جانبهم لمواساتهم، كما كان هو دائمًا إلى جانبنا مواسيًا ومشجِّعًا.

وفي الذكرى الخامسة والعشرين للمجزرة، كان عزاؤنا الكبير بمقابلة شقيقته أنطونيلا التي تَحْمل ملامحَه الطيّبةَ نفسَها، فأحسسْنا من خلالها كأنّه معنا يواسينا. وقد قمنا بدورنا بتعزيتها قائلين لها إنّ خسارتنا كبيرة بستيفانو؛ ولكنّ عزاءنا الكبير بأصدقائه في «لجنة كي لا ننسى مجزرة صبرا وشاتيلا»؛ فهم سيُكْملون الطريقَ مِنْ بعده.

لن ننساكَ أبدًا يا ستيفانو كياريني. ستبقى صورتُكَ ومبادئُكَ في كلِّ إنسان شريفٍ مناصرٍ لقضيّتنا.

سناء سرساوي
(من أهالي ضحايا مجزرة صبرا وشاتيلا)

وصيَّتكُ... ووصيّتُنا

لقد ترك العدوُّ الصهيوني بصماته الدمويةَ في صبرا وشاتيلا، فجاء ستيفانو كياريني وزَرَعَ شجرتيْ زيتون وليمون على أضرحة الشهداء، في الأرض التي تَسْكنها أرواحُهم الطاهرة. زَرَعَ الأملَ والسلامَ والطمأنينةَ في قلوب أهلهم وأبنائهم، أملاً في أن ينال المجرمُ عقابَه وجزاءه إنْ شاء اللّه.

في الذكرى الخامسة العشرين للمجزرة، كان ستيفانو كياريني حاضرًا في قلوب الحاضرين. وها أختُه أنطونيلا تقف مكانَ أخيها، متابعةً مسيرتَه النضاليةَ والإنسانيةَ.

لن تُمْحَى من ذاكرة الشرفاء يا ستيفانو، وسيبقى اسمُك علمًا للصمود والتضحية والوفاء. وصيَّتُك يا ستيفانو «كي لا ننسى مجزرة صبرا وشاتيلا.» أما وصيةُ أجيالنا الصاعدة فهي: «كي لا ننسى ستيفانو كياريني.»

هشام محمد غزلان
(عامل اجتماعي في مؤسسة بيت أطفال الصمود)

أسرابُ الطيور

لقد افتقدناكَ وخسرناكَ يا ستيفانو كياريني. خسرنا الرجلَ الطيبَ، الصحافيَّ، المراسلَ، المقاومَ بقلمه، الصادقَ، المخلصَ الذي عمل وناضل من أجل قضايا الشعوب المقهورة، وبصورةٍ خاصةٍ الفلسطينيون.

لقد تعرَّفتَ على معاناتنا في مخيّمات اللجوء، وعلى صعوبة عيشنا التي كانت من نتائج الاحتلال لأرضنا ووطننا فلسطين. وكان قلمُك نبراسًا يضيء الجوانبَ المظلمةَ في قضيتنا وحياتنا، فكشفتَ النقابَ عن مجزرة صبرا وشاتيلا، وفضحتَ بربريةَ العدوان الصهيوني خلالها، وعملتَ على تأسيس «لجنة كي لا ننسى صبرا وشاتيلا،» كذلك عملتَ على تأسيس «منتدى فلسطين» في روما، وتحدّيتَ ضغوطًا كثيرة كانت تمارَسُ عليكَ. ولكنّ قناعتَكَ بأنّنا أصحابُ حقّ وقضية هي التي جعلتْكَ تعمل على تحسين المكان الذي تُوارَى فيه جثامينُ الضحايا، ليبقوا شاهدًا حيّاً ـ على مرّ التاريخ ـ على بربرية الكيان الصهيوني. وزرعتَ شجرَ الزيتون والليمون على جوانب المكان لعِلْمِكَ بحبّنا لهذه الأشجار من فلسطين إلى لبنان.

نحن على ثقة بأنّ هؤلاء الضحايا الذين عملتَ الكثيرَ من أجلهم يحبّونك. وإنْ شاء اللّه تكون أرواحُ أطفالنا أسرابًا من الطيور تغرِّد لتُسْمعكَ زقزقتَها وهي فرحةٌ مستبشرةٌ بك: فأنتِ حبيبُ فلسطين وشعبِ فلسطين. لقد أحببناكَ يا ستيفانو لأنّ شدّة حبّك وتعلُّقِكَ بقدْسِنا وفلسطينِنا جديرةٌ بأن تجعلكَ ابنَنا وابنَ فلسطين.

أقولُ لولديْك: لا تحزنا لرحيل أبيكما لأنّه رجل عظيم، ونحن على يقين أنكما ستزدادان قوّةً وصلابةً وإرادةً في هذه المحنة والمصاب العظيم. وإلى أمك وعائلتك التي أنجبتْكَ يا ستيفانو، نقول: حقّاً إنّكما أمٌّ عظيمة، وعائلةٌ جديرةٌ بالتقدير!

شهيرة أبو ردينة
(من أهالي ضحايا مجزرة صبرا وشاتيلا)